obeikandl.com

حِيزِيَة

obeikandl.com

¨ **الكتاب** :**حيزية**

¨ **المؤلف**: **محمد جربوعة**

¨ **الطبعة الأولى** 07 / 2014

محمد جربوعة

حيزيّة

رواية شعرية

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدّمة

حيزية ..هذه المرأة التي حفرت بأظافرها في صخور صحراء الجزائر أسطورة أخرى من أساطير الحبّ العذري .. وأعادتْ رسْم لوحات قديمة كثيرة عرفتها الصحراء العربية هنا أو هناك،بأسماء عدة تناقلها الناس وروى أخبارها الرواة (قيس وليلى)،(جميل وبثينة)،(عنترة وعبلة)،(عروة وعفراء)،(المحلق وتاجوج)،(كثير وعزة)،(عمرو وعقيلة)،وغيرها..

ومهما حاول البعض تزوير قصة حيزية وابن عمّها سعيّد،فإنه من المستحيل أن تخرج هذه القصة عن مثيلاتها في كونها إحدى روائع التاريخ ولآلئ الصحراء،حيث تمتزج العيون السوداء بالقلوب الملتهبة بوفاء الفرسان .. ليولد الكثير من الكلام والإشاعات..

ولقد نسج الناس عن حيزية الكثير ، وحين لا يبقى من القصة سوى قصيدة لشاعر شعبي ،فإنّ كل ذلك الفراغ يستدعي التخمينات والادعاءات والتخرّص..

وما كان يمكنني أن أكتب عن حيزية انطلاقا من واقع (التشويه) الذي يطعن فيها، لأنّ كل ذلك مخالف لنص (ابن قيطون) الذي يعتبر المرجع الأساسي للقصة.

لذلك اتكأتُ على المرجع الوحيد الموثق في هذا الشأن وهو قصيدة ابن قيطون ، وأهملتُ كلّ الزبد الذي هو تخرّصات نسجها الناس في فراغ حياة كاملة لم يصلنا منها سوى (مرثية) ..

حيزية لم تكن سوى فتاة جميلة أحبت ابن عمّها سعيّد وأحبّها..ثمّ غادرت الدنيا الفانية في ريعان شبابها مخلّفة قلبا محترقا ومرثية شعرية خلدتها..

وقد ولدت حيزية بنت أحمد بن الباي بوعكاز،الذوادية الهلالية ، سنة 1855 م ، في بلدة سيدي خالد ،وتوفيت قريبا من قريتها ، في مكان يسمى (وادي يتل) ،وهي عائدة من (بازر) بالشمال ، حيث اعتاد أهلها قضاء الصيف ..وكانت وفاتها سنة 1878 ، عن عمر يناهز 23 سنة..

بينما ولد الشاعر ابن قيطون الذي خلّدها في مرثية شعبية طويلة ، سنة 1843 ، وتوفي سنة 1907..

وكل القصص فقد كان طبيعيا جدا أن تكثر التكهنات والآراء والمرويات والأقوال عن حيزية..وأن يرسمها البعض بالطبشور ، ويرسمها آخرون بالفحم..وكذلك هو الأمر إزاء كل القصص التي يلفها الستر والحياء والتخفي وتحيطها موانع الأخلاق والدين والأعراف ، يزيد فيها الناس ويتقولون ويتخيلون وينقصون..ولم تكن قصة حيزية لتخطئها الآية الكريمة (وقال نسوة في المدينة..)..وقد قلن ، وتهامسن في لقاءاتهنّ.. وذاك شأن ربات الحجال..وكان ذلك جزءً مما بلور القصة بمروياتها المختلفة..

ولئن كان للوردة وطن ، فإنه ليس لشذاها وطن ولا حدود ..لذلك تحولت حيزية بعد موتها إلى قصة لا حدود لها ولا وطن ..تماما كما هي قصص عفراء وليلى وبثينة..

أجمل ما في قصة حيزية أنّها كسرت رتابة التاريخ في منطقة لم يُعرف عنها ما عُرف عن بلاد المشرق العربي من قصص الهوى العذري ، مما روته كتب التاريخ والأدب.. ولولا حيزية لكانَ أدب وتاريخ الجزائر خاليا مِن قصة في هذا الشأن .. رغم كثرة مرويات التاريخ والأدب الجزائري في مجالات أخرى..

وذلك ما يجعل (حيزية) زهرة أدبية في صحراء واسعة لا تكاد تعترف بالحبّ العذري وبالوفاء حتى وإن كان بين زوجين، إلا في إطار الاثم والعار، وذلك ما جعل كل هذه الصحراء تحاول قتل الزهرة الوحيدة التي نبتت فيها..

وكان من واجبي أن أمدّ كفّيَّ لأزيل عن وردة الصحراء هذه بعض الرمل المتآمر الذي يريد أن يحوّلها إلى (خضراء دمن)،وأنا أقول (حيزية ليست وردة نبتت في دمنة.. بل وردة نبتت في صحراء) ..وكان عليها أن تدفع ثمن ذلك..رحمها الله..

الاثنين 26 أيار - مايو 2014

الحلقة الأولى

-1

كان الصباح لطيفا شفيفا خفيفا نظيفا ، في أوائل هذا الصيف من سنة 1874 م ..وللصيف في بداياته أنفاس دافئة معطّرة ببقايا يابسة من أعشاب الربيع وورود .

وللصباح دائما ما يقوله لهذا الحيّ الصحراوي المسمى (سيدي خالد) ، والذي يستيقظ من نومه الآن ، مستعيدا دبيب الحياة في أرجائه ونواحيه بعد ليلة صافية هادئة.

أما هي، فقد استفاقت باكرا على سقسقات العصافير قرب خيمتها ، وقد تعوّدت على أن تقول للشمس وللامتداد الآسر: (صباح الخير) ..

فتحت مطلّ الخيمة لتطيّرَ عينيها السوداوين الواسعتين كزلاوين ([1]) جارحتين، تستكشف الآفاق

1- [1] - مُثنى زلماء والزلماء أنثى الصقر.

المتدة،وتكنس برموشها الطويلة ما حول حيها من امتداد للمكان ..

لم تجاوز سنتها التاسعة عشرة عمرا ، لكنها تجاوزت خطوط الفتنة جمالا.. فكانت زينة صبايا الحيّ، وحلم رجاله ..

صبية ميسورة الحال تقطر دلالا وتذوب رقة، جريئة القلب في انكسار خجل للعينين .. أبوها سيّد قومه .. هلالية لها من جدتها (الجازية) الكثير.. ولها من نفسها ما يجعلها متميزة لا تشبه الصبايا ولا يشبهنها..

هي ذي تطل.. وهي تلبس اسمها الجميل الغريب (حيزية)..هكذا ..حاء ، ياء، زاي، ياء، وتاء مربوطة. .ولم تكن التاء وحدها المربوطة..فقد كانت هناك غزالة جميلة مربوطة إلى وتد خيمتها ، وبجانبها خشف يسرّي عن قلب المحزون..

بأصابع الحناء تزيل الستار جانبا..تطل.. تتراءى لها خيام الحيّ منثورة في تجاور أو تباعد .. وقطعان الحيّ مبكّرة نحو مراعيها ..وبعض النوق والخيول .. والرجال والنساء

والأطفال .. ودجاجات تنكش الأرض وتثير الضجة في المكان....

يختلط الثغاء بالرغاء برنات الخلاخل ..بينما ترتفع الشمس متوكئة على عكازها نحو قلب السماء،ذهبية،أنيقة.. تبتسم..

لم تكن تلك سوى (حيزية بنت أحمد بن الباي) تبتسم وهي تمسّح ضفيرتها من أعلى إلى أسفل، تعبث بما جُدلت به من شريط أصفر ، يتداخل في سواد الشّعر جمالا وشدة..

مضت عليها أيام ثلاثة مذ أحسّت بنبض طارئ يهزّ قلبها الصغير البريء، وبنهر أبيض كالحليب يعبر جوانحها ويفتح عينيها على ما تنفتح عليه أعين الصبايا في سنها عادة ، حين يحرّكهنّ النسيم في موسمهنّ العاطفي الأول.. ثلاثة أيام ..أحسّت فيها بوجه هذا الفتى ، ابن عمّها (سْعيّد) يكبرُ داخلها مثل قمر ..حتى ليكاد يملأ مساحة روحها..

وهي الآن تغمض عينيها من خلال مطلّ خيمتها ،تستشعر رائحته ، تشهق ، لتملأ صدرها منه استعدادا ليومها الرابع في عمرها الجديد ، بنبضها الجديد.. ولعلها وهي المغرورة قد استخسرت في غيره جمالها الآسر،فهزت اللحن بصوتها الجميل خافتا، وهي تتأمل قوامها وجمالها:

روائحُ العطر في ثوبيه وفي بدنيه
له، وهسهسة الأقراط في أذُنيه
له الأساورُ في رسغيَّ صارخةً
وما غلا في عيون الغيدِ في الثمنِ
له الخواتمُ ، والحنّاءُ فوق يدي
تفشي بزخرفها سرّي وتفضحني
وفتنة الشَّعر شرقيّا، وما ضفرتْ
أميمتي فوق أكتافي من الفتنِ
ولابن عمّي مناديلي مطرّزة
بـ (السين) و(الحاء) بين السرّ والعلنِ

إن قلن (ما السينُ ؟ سمّيهِ لنعرفهُ)
خفضتُ عيني .. ولم أنطق ، ولم أُبِنِ

فإنْ أعدنَ، أقول : (الصبح موعدنا
صبرا جميلا ،فإنّ الوقت لم يحنِ)
لهُ ليالٍ يمسّينا ويُسهرنا
إلى الصباح ، بلا غمضٍ ولا وسنِ
يا ليتَ ساكن بالي مرّ، صبّحنا
بوجههِ الشاعريّ الباسم الحَسَنِ

وانفرجت شفتاها عن بسمة كنسمة ، ثم أرخت ستار خيمتها ، وعادت إلى الداخل لبعض أشغالها ..

-2

على صهوة جواد أدهم ، يطأ في بياض وينظر في بياض ،على ناصيته كالهلال ، كان الفتى (سْعَيّد) ينطلق نحو

أفقٍ بكّر إليه الرعاة ، يتفقّد المرعى وقطيع والده.. يحرّك الضبحُ والنقع والقدح في جوانحه غصن الكلام الجميل.. هو الذي لم تكن تخطر على باله أنثى... لكن حيزية ابنة عمه،قد بعثرت كلّ كثبان رمله منذ يومين حين قابلته آيبة من نبع الماء، وحدجته بعينين جارحتين ، هو إلى الآن يعالج ما فعلتاه فيه..

أترى هذا الذي يتلجلج فيه الآن كما يتلجلج الدم في عروق جواده زئبقيا حارقا، هو الذي يسمونه (الحب)؟ أتراها استطاعت أن تهزّ فيه خيام قلبه بصرصر عينيها مقتلعة أوتادها بعد عشرين سنة ما اهتزت له فيها شعرة لحسناء ؟

هزت به ما تهز الريحُ في الشجرِ
من الغصونِ، وما تجتاح من ثمرِ
وما تطيّر من طيرٍ، تروّعها
وما تحتّ مِن الكثبان والحجرِ

وجرّفت فيه ما الأمطار تجرفهُ
في النهر بعد (أسابيعٍ) من المطرِ
وزلزلت فيه ما انشقت جوانحهُ
له وخلّف في الأضلاعِ كالحفرِ

وغيّرته بشيء في بآبئها
وأكثرُ الحبّ في العشّاقِ بالنظرِ
وكانَ يشبه (أهل الله) معتكفا
على الصلاة وذكر الله والسوَرِ
ما كانَ أُعجِبَ في (عشرينه) أبدا
بحسن أنثى، وما أثنى على قمرِ
والآنَ يشعر في أحشائه ولهاً
يغلي ، ويشعر في عينيهِ بالشررِ
وصار ينسى ..وما ينسى حبيبتهُ
وصارَ يرجف بالتطريب كالوترِ

ويقرأ الشعر، يبكي حين يحرقهُ

ولا ينام سوى جنبٍ على إبرِ

إذا مشتْ مسّ ما مسّت بأرجلها

والشوق يُبردُه العشاقُ بالأثرِ

وحظه ما رمتْ من قوس أعينها

بين الرموشِ وبين الكحل و الحورِ

كانت الشمس لا تزال تتوكأ على عصاها ، نحو منزل الضحى في السماء ..والسماء منازل.. بينما ضحكات الصبايا تتعالى في طريقهنّ إلى النبع، وهنّ يسألن (حيزية) عما طرأ على حالها من تبدّل ..

oberkanal.com

الحلقة الثانية

كان الضحى يُرمض بطاح (سيدي خالد) ، ليتراءى السراب المترقرق وهما والمتراقص خدعة في بعض جنبات هذا الحي الفسيح.. وكما يجرّ المرء جَمَله .. كان من أمر قلب (سعيّد) أن جرّه في تلك الساعة إلى بيت عمه (أحمد) والد حيزية.. وللعشاق في افتعال الأسباب والحاجات قصص لا تخفى..

اقترب (سعيّد) من خيام عمه رافعا صوته بالسلام تنبيها،كما هي العادة..وأسقطت الفتاة ما كانت تحمله في يدها، وجرت إلى الخارج ، حيث التقت عيناها بعيني هذا الفتى الذي هو عيناها..

هشت وبشت ورحّبت في خجل أكثره مصطنع .. فقد كبرا معا ، ولعبا معا، وهي تعلم أنه أحق الرجال بها، حسب ما هو شائع من التقاليد في هذه البوادي والأحياء..

ما كان سعيّد وحيزية يفترقان إلا للنوم .. أما اليوم،ومنذ خمس سنوات ، فقد حالت بينهما العادات وما يقتضيه سنهما من الفراق والتباعد، ولعل ذلك ما جعل قلبيهما يتجرعان مرارة التنائي ويحنان إلى ملاعب الصبا .. ولأنّ أعين الأهل في البادية حارسةٌ ، فقد كان عليه وعليها أن يقولا الكثير ، وأن يشتكيا طويلا،بالنظر،لا غير النظر.. والتقت الأعين مذبّلة حينا،ومغمضة حينا في إمالة الرؤوس يمينا وشمالا،تحكي المرارة وتشكو النوى ولوعة الفراق..

وانطلق بينهما صوت عذب صامت لم تتحرك به شفة ولا اهتز به حبل صوت، إنما هو حديث العيون :

لا تخبريني ، فإنّ الحيّ يَسمعنا
ولنكتم الآنَ ما في القلبِ يوجعنا
مضى زمان، وقد كنّا نظنّ به
أن لا يفرّق ما قد كان يجمعنا

فلتذكريني .. ولا تنسي طفولتنا
أُعطي حياتي لمن للأمس يُرجعنا
لم يبقَ منا سوى طفلين قد كبرا
والذكرياتِ تسلّينا وتُدمعنا
وما كبُرنا ..ولم نترك براءتنا
وما تزال تحبّ اللهو أضلعنا
فمن لم الحقّ في إنهاء قصّتنا
ومَن سيقنع قلبينا ويقنعنا ؟
كالثوبِ صرنا إلى نصفين.. يا أسفي
فمن سيجمع نصفينا .. يرقّعنا ؟
أشتاقُ جدا.. وسيف الشوق (يقطعني)
قالت : (ستصدقُ لو قد قلتَ (يقطعنا))

واستفاقا على صوت والدة حيزية وهي تسأل سعيّد عن حاجتم ، فلا يجد جوابا ، لعلم نسي ما جاء لأجلم ..أو لعلم لم يأت لشيء إلا لرؤية حيزية .. واعتذر مبتسما

وهو ينأى وفي قلبه مرارة من يرثي لحاله وقد أبعدته الأيام بعد قرب وشردت قلبه بعد قرار..

بينما بقيت حيزية مسمرة في مكانها ، عيناها عليه مدبرا ، وبين جوانحها:

يا حسرتاهُ عليكَ.. اللّه يشفيكا
مما يؤرّكَ من حبي ويشويكا
حشاشةَ الروح .. يا طفلي الذي ذهبتْ
به الليالي .. أنا بالعمر أفديكا
عيني عليك ، وقلبي حارسٌ أبدا
ودمعتي في غياب الماء ترويكا
أيا ابن عمّي .. وأغلى مَن عقدتُ له
من حاجبيَّ ، ومن كذّبتُ، تشكيكا
إن قصّ ريش جناحي والدي وجلا
أبقى بريش جناح الشوق آتيكا

ولعلّ والدة حيزية قد شعرت بما تسره ابنتها ، وقلب البنت موصول بقلب أمها، وروحها من روحها.. وتحرك فيها صدى أفكارها وكأنها تخاطبها مشفقة:

ما كان ضرك لو لم تشعلي النارا
ولم تهزّي بعود الحبّ أوتارا ؟
ما كان ضرّك لو قد جئت في خجلٍ
لتسأليني عن الزلزال إذ ثارا ؟
ما كانَ ضرّكِ يا عيني ، ويا كبدي
يا عين والدها لو صُغتِ أعذارا ؟
ما كان ضرك لو فكرت ساعتها
أنّ احتراق فتاة يجلب العارا ؟
ما كان ضرّك لو قد قلت لي مثلا
بما شعرتِ ، ولم تخفيه أسرارا ؟
ولستِ أوّلَ مَن نامت بأدمعها
ولست أوّلَ صرعى الحبّ إن جارا

ولست آخر من مدت أصابعها
لتمسك القلبَ كالعصفور إن طارا
وأنت لا شكّ يا عينيّ ميّتةٌ
بالقلبِ .. حار دليل الطبّ واحتارا
كم قبلَ هذا من العشاق قد ذبلوا
مخلّفينَ لنا في الحبّ أخبارا
والآن ماذا يفيد النصح يا أسفي
وكل ما كنت أخشى منه قد صارا ؟
وهل سينقذ رأيُ الأمّ آنسةً
جدارها انشقّ في الزلزال وانهارا ؟

ولعل أمّها قد رقّت لحالها .. هي التي تدري أن لا يدَ توقف زحفَ الخضرة أو الصفرة وهي تمتد في سنبلة القمح.. تنهّدت ثم أكملت طريقها وبين يديها قربة الماء تقصد بها حمّالتها الخشبية ، حيث ستعلّقها في الفيء..

الحلقة الثالثة

اقترب عيد الفطر المبارك .. وللعيد في البادية معناه،ولـه طقوسه ، ولـه فرحه الغامر الذي يسبقه بأيام..

ولم يكن في بال سعيّد في تلك الساعة من الصباح وهو يسند ظهره إلى جدار طيني ، في استراحة مجهد ، أنّ طفلا صغيرا سيجري نحوه ثم يتوقف لاهثا وهو يمدّ له يده بشيء ما ..

انصرف الطفل راكضا كما جاء ، وكالوجِل المخمّن ، فتح سعيّد اللفافة ، ليرى فيها قميصا مخططا جميلا ..

ولم يكن بحاجة إلى أن يفكّر طويلا ليعرف مرسله،فلقلوب المحبين أنوف تشمّ أحبّتهم في هداياهم.. وترقرقت في عينيه دمعة وفاء وحنان ..

قرّب القميص ، شمّه ثم مسّح به وجهه يتنسّم أعمق ما فيه من روائح روحه،وللأرواح روائحها التي لا تغادر الأرض حتى بعد وفاة أصحابها..

ملأ صدره من روائح عطورها وحنائها ودموعها وبسماتها في القميص ، قبل أن تنفرج شفتاه بابتسامة عريضة،دافئة، ضمّنها كل ما في قلبه من الحبّ لهذه الصبيةالتي لا يتنفس غيرها ولا يشتد به الحنين لسواها..

في الضمّ شمَّ ..وباسَ الثوبَ.. وابتسما
ووحْوحَ القلبُ في جنبيه واضطَرما
ولم تدسَّ له طيّا رسالَتَها
لكنّه بعد شمّ الثوبِ قد فهِما
والشمّ يُخجِل في التفّاحِ حُمرتهُ
وليس يَعرف ذاك الأمرَ من قضما
الشمّ فنّ رهيبٌ، لا يكون لمنْ
مِن نعمةِ الحبّ والأشواق قد حُرِما

روح الأحبة في الأشياء ساكنةٌ
كذاك قالَ شيوخُ العشق والعُلَما
وصخرة من يد المحبوبِ جوهرة
قالوا : (تسلّي) وقالوا: (تُذهب الألَما)
وليس يَفهمُ معنى الشوقِ من رقدتْ
له الرياحُ ، فلم يعشقْ ، ولا حَلُما

كان الفتى سعيّد لا يزال يشمّ الثوب مغمض العينين تائها ، حين مرّت به حيزية مع صاحبة لها تعرف سرّها ، وقد رأت فيه بذلك ما زاده في عينها رفعة وفي حشاشتها تشبثا .. وليس قليلا أن تجد صبية في الأزمان المتأخرة قلبا فارسا جميلا وفيا ، يعيد إلى الدنيا روايات الهوى العذريّ ، وقصص رجال الحب وشيوخ العشق الذين يتناقل الناس أخبارهم بإكبار..
ولعله انتبه إلى حيزية وهو يفتح عينيه ، بينما لا يزال الثوب على صدره يسكره ..ولم يكن من الممكن

آنذاك وفق أعراف البدو أن يتحدث إليها .. لكنه صوّب نحوها عينين مغرورقتين بالدمع والشوق ، وأرسل لها ببآبئه كلاما فصيحا ، فهمته وضمت عليه جانحيها..:

(صَحّيتِ) ([2])...شكرا..جزاك اللهِ ..يا كبدي
ضاع الكلامُ ...وغير الصمتِ لم أجدِ
لك امتنانٍ بقدر الرمل جامعِنا
في (سيّدي خالد).. عدّا بلا عددِ
أنا أحبّكِ..لكنّي أخبئنا
خوفا من القيل، والعذّالِ ، والحسدِ
ولو تشقّينَ قلبي.. سوفَ لن تجدي
سواكِ فيَّ، يمين الله لن تجدي

[2] - صحيت: لفظة شكر وامتنان في المنطقة ، بمعنى رزقك الله الصحة.

هذا القميص سيبقى منكِ رائحةً
طول الحياة ، إلى موتي ، إلى الأبدِ
وعند موتي ، سأوصيهم بهِ كفنا
فما كثوبكِ من ثوبٍ على جسدي

لم تجد حيزية أمام المشهد المذيب غير دمعة ، ترسلها على خدّها ممزوجة بالكحل، ثمّ تمد يدها لتمسحها .. وتمضي في طريقها وقد شبعت وفاء وارتوت عاطفة ، لما يكفيها لعمرين كاملين..بينما كان قلبها يردّد:

عزيزَ قلبي ، حَنوني ، أعيُني، شغفي
وأخوفَ الناس في الدنيا على شرفِي
وأقربَ الناس من قلبي ، وسيّدَهُ
شقيقَ عينيَّ، لولا أنت لم أقفِ

(ربّي وكيلكَ).. هذا الحب يقتلني

ألا تصدّقُني، قل لي، بلا حلفِ ؟

والله واللهِ، ما خضّبتُ كفّ يدٍ

إلا لأجلكَ، أو طرّزتُ في كتفِ

قل لي (أحبكِ) ..قلها، كي أعيش بها

لا تتركِ الأمر للأيام والصدفِ

عمري بدونكِ لا معنى لهُ أبدا

سينتهي - لا أراك الله- بالتلفِ

ورغم أنكَ يا ابن العمّ مبتعدٌ

أنا أحسكَ تقضي كلّ يومكَ في

oberikanal.com

الحلقة الرابعة

هي ليلة العيد .. ولم تكن عين حيزية خالية من الدمع والخوف كبقية بنات الحي .. توسّدت كفّها أوّل الليل لتنام ، لكنها ما نامت من الليل إلا بقدر ما رأت في أوله حلما استيقظت منه خائفة ترتجف.. وظلت تقلّب ما رأت تطلب له تفسيرا إلى الصبح..

باكرا قبّلتها والدتها مهنّئة بالعيد ، متمنية لها ما تتمنى النساء عادة لبناتهنّ من السعادة والخير.. غير أنها لاحظت عليها صفرة وذهولا ، وسألتها إن كانت قد نامت ليلتها جيدا..فأجابت حيزية:

وضعتُ رأسي على كفّي .. ولم أنمِ
رأيتُ حُلْما ..ويا للحلم من حلُمِ
رأيتُ نفسي .. كأنّ الطيرَ تأكلني
وتنثر العظم والأشلاءَ فوق دمي

حاولت أهربُ ، لم أقدر، ففي قدمي
كالقيد ، يمنعُ، أو أنّي بلا قدمِ
ناديتُ ..ناديتُ..أهلَ الحيّ صارخةً
باللهِ ،بالدين، بالقرىٰ ..وبالرحمِ
فما رأيتُ سوى النظرات تشتمني
وكنت أبكي من الإحساس بالألمِ
حظي قليلٌ.. وعمري ينتهي كمدا
يا حسرتاهُ..و(جفّ الحبر في القلمِ)

وكانت لحيزية حمامة بيضاء جميلة متميزة بين حمامات أهل الحيّ ، تهتمّ بها اهتمامها بنفسها .. تتعهّدها بالرعاية ، وتقضي معها أوقاتا تأخذها فيها بين يديها ، تقرّبها من خدها في حنان ، وتحدثها عن أحلامها البريئة وعن خوف قلبها من القادم من الأيام ..وكم بللتْ حيزية ريش تلك الحمامة بريق ثغرها تقبيلا،أو بدمعها بكاء ..

وكالعادة كان على الصبية أن تتفقّد حمامتها هذا الصباح .. ويا للهول حين رأتها باردة قد يبّسها الموت..والضيق يأتي كالسرور موجات موجات ، وغيمات غيمات .. وبدا لحيزية أنّ موسما للحزن ينتظر قلبها .. وازدادت غصة ضبوعها اشتدادا.. ومدّت يدها بحنّاء العيد تمسح دمعتين، دمعةَ رحمةٍ بحمامتها ، ودمعةَ شفقة على نفسها..والدمعتان ساخنتان بقدر ما تحسّ صبية من انكسار حظّها أو ضعفها عن مواجهة أقدار تخافها..
رفعت الحمامة بين يديها واهتزت تحدّثها بالبكاء والنشيج:

أنا وأنتِ.. بلا حظّ ولا أملِ
- دون الحمامات، والنسوانِ- لم نزلِ
جئنا إلى هذه الدنيا على عجلٍ
وسوف نرحل يا أختي على عجلِ

سبقتنِي لتراب الأرض صابرةً
مثلي على الظلم والأحزان والوجلِ
إن فاض قلبي كمثل الكأس ممتلئا
مما يثيرُ عليّ الناسُ مِن جدلِ
لمن سأشكو جراحي ؟من سيفهمني؟
ومَن سأمطرُ بالدمعاتِ والقبَلِ ؟
أنتِ استرحتِ بهذا الموت غاليتي
أمّا أنا ، أختك الكبرى، فلم أزلِ
وسوف أصبرُ حين الشوقُ يعصرني
وأنتِ مثلي إذا ما اشتقتِ فاحتملي
وسوف ألحقُ ..هذا القلبُ يخبرني
ولن يطولَ - بإذن الله- بي أجَلي

أخذت حيزية حمامتها لتدفنها قريبا من الخيمة،وترامت إليها أصوات فرح بالعيد ، بعضها ضجيج أطفال صغار، وبعضها غناء وزغاريد نساء .. وبعضها

أصوات بارود .. وقابلها والدها (أحمد بن الباي) خارجة،وقد رأى الحمامة بين يديها ، وعرف ما تكابده لأجلها من الحزن ، لكنه أراد أن يسرّيَ عنها ،فقال: (اليوم عيد يا ابنتي ، فاغسلي دموعك وافرحي مع صاحباتك)..وأجابتْ:

مما روى الناس في المحكيّ ، أو نقلوا :

(الحزنُ إن جاءَ لا تجدي بهِ الحِيلُ)

فكيف يا والدي قل لي أودّعها ؟

وكيف - أرجوك- أنساها وأحتملُ ؟

ما استأذنتني دموعي حينما انهمرتْ

فكيف أصنعُ في حزني؟ وما العملُ ؟

ما ذنب عيني إذا سالتْ بأدمعها

وكان قلبي رقيق اللحم ينفعلُ ؟

و(الله يعلمُ...)، ريشاتي مكسّرة

تكادُ روحي إلى مولاي تنتقلُ

كل الحمامات ، فوق الحيّ طائرة

إلا حمامتنا..للقبر تُحتملُ

قليلةَ الحظ عاشت عمرها قلَقا

في عينها الحبّ، والأحزانُ والوجلُ

وقيل في كتب الأسلافِ في سندٍ

بالعنعناتِ إلى الأشياخِ يتّصلُ:

((تبكي الدروب لذكرى عابرين بها

إن قال مُخبرها : (ساروا وما وصلوا)..))

وسارت حيزيةُ إلى جهة تقبر حمامتها ، بينما عينا والدها تشيعانها في حنان وإشفاق.. ولم يكن شيء ساعتئذ يؤلم قلب حيزية كهذا الجرح على صدر حمامتها من أثر طلقة أصابتها منذ ليلتين ..وقد بذلت حيزية لإنقاذ حمامتها جهدها ..غير أنّ الجرح كان أكبر منها ومن احتمال حمامتها.. وقد أودى بها..

الحلقة الخامسة

دخـــــــــل الخريـــــــــــف بطقوســـــــــــه المتميـزة..منعشـا،رماديا،غائما..ونسـيت حيزيـة حلمهـا المفزع أو كادت .. كما تجاوزت أحزانها على حمامتها.. واستعادت إقبالها على الحياة ، مشاكسة متدللة،وقد كانت زينة مجالس الصبايا ،وحديثهن في غيابها..

كان جمالها الآسر يشغل أهل الحيّ اهتماما ونقاشا.. فكأنّها كبُرت فقط لتشغل الناس ، ولتكون موضوعا يملأ حياتهم الفارغة التي يلجأ البعض إلى الإشاعات لملئها.. أما السمر الليلي فلم يكن الحديث عن حيزية ليغيب عنه ..وكما قيل ، فقد ملأت هذه الصبية دنيا الحيّ وشغلت الناس فيه..

كان صباح الخريف بنسماته المنعشة يغسل الأنفس من وعثاء صيف حار.. وكان نبع الماء كعادته ملتقى للنساء

والصبايا ، فيه يتبادلن الأخبار ، ويطّلعن على الجديد،ويحكين حكاياتهنّ أو يستمعن إليها..
وكالعادة أيضا ، لم يخلُ الأمر من الحديث عن حيزية،واجتماع النسوة على سؤالها بفضول ماكر ، وقد بلغ جلَّهنّ أو كلّهنّ خبرُ رغبة ابن أحد الأعيان في خطبتها ، وما كان خبر كهذا سيخفى في حيّ كهذا.. ولعلّ ما لمّحت له صبية ، ولم تسعفها جرأتها في قوله صريحا، قالته عجوز مسنة واضحا فصيحا، وهي تسأل حيزية عن صحة ما قيل وما يقال :

قالوا خُطبتِ..وهل يخفى لكم خبرُ؟
الكلّ يعرف ، حتى الرمل والشجرُ
فهل قبلتِ؟ أكيدٌ تقبلين به
فأنت شمسٌ وباغي قربكِ القمرُ

ولأنّ خبر حبها لابن عمّها قد شاع وذاع وبلغ الأسماع ، لم تكن حيزية لتكتم ما في قلبها ، هي المهرة الشرسة

التي لا ترتضي لجاما غير لجام ابن عمّها ، وسال ثغرها بما في قلبها من الكلام ، تبرد فضول النسوة ، وتحسم ظنونهن:

ما كابن عمّي وإن أعطوينَ الذهبا
إن يسألوني.. أنا لا أعرف السببا
والقلب خلقٌ غبيّ، لا جواب لهُ
في الحب، يبصم كالعميان، يا عجبا
فكيف أفعل كي أنساهُ؟ أقتلُني؟
أم أُغفل الجرح مهما اهتزّ أو ثعبا
هو ابن عمّي ..لهُ حقّ القرابة في
فكيف أمنح هذا الحقّ للغربا ؟
لي ألف عذر وعذر في محبّتهِ
فاتركن عذلي .. وذرنَ اللومَ والعتبا
أحبّ حبّ حبيبي .. رغم قسوتهِ
وما عليّ من الأهوال قد جلبا

ماذا يساوي هوى قلبٍ بلا ألمٍ
ودون نار ضلوعٍ تأكل الحطبا ؟
لعلها أسطر المكتوب قد حُفرت
على الجبين ،وقلبي طوعُ ما كُتبا
لغير اِسم حبيبي ما هفت أذني
ودونَ ذِكر حبيبي لم أمِلْ طربا
وكان مني عيوني،نبض أوردتي
ودورةَ الدم بي، واللحم، والعصبا
وقد سألتُ شيوخ الدين عن حلَفي
به فقالوا (حرامٌ.. تركه وجبا)
ولو أجازوا لما أقسمت صادقةً
إلا بعينيهِ..من يهواه ما كذبا

وما كادت تنتهي من كلامها ذاك ، حتى بدا سعيّد في الأفق البعيد ، يزلزل الحيّ بنقع جواده العربي الأصيل .. ويلفت الأعين إليه ، وخلفه أثوابه محمولة على بساط

الريح مرفرفة .. فارسا هلاليا من بقايا عهود العزّ العربي..واستدارت ترمقه ، واستدار قلبها باستدارة عينها،ولعلها كانت في تلك الساعة وحبيب أعينها يمزّق الدوّ كالسهم، ترغب في أن توصل له رسالة تمليها بصمت عينيها على راع كان بين السفح والوادي حيث كان سعيّد ،ونادت عيناها الراعي تطلب منه أن يبلّغ سلامها لفارس الحي:

يا نافخ الناي بين السفح والوادي
بلّغ سلامي لذاك الأسمر الغادي
أنا مسافرة في الحبّ، ضائعةٌ
أمشي إليه بقلب شبه منقادِ
وما لديّ وعودٌ غير نظرتهِ
وما لديّ سوى الأوهامِ من زادِ
كخيمةٍ من خيام البدو خافقةٍ
بلا عمودٍ، أنا، من دون أعوادِ

يكاد صرصر ريح الشوق يَقلعني
ويقطع الحبل أو يودي بأوتادي
والناسُ بين فضوليّ يراقبني
يُشيع عنّي، وإفكيّينَّ حُسّادِ
فاقرأ لهـ بيت شعِر كي تذكّرهُ
عهد الحبيب..وطرّبْ أيها الحادي
فالقلبُ تحرقهـ الأشعارُ إن حسُنتْ
وكهـ يرقّ بتطريب وإنشادِ

وغاب سعيّد في الأفق .. حيث لهـ يعد يراه غير قلبها،بينما قطرت من عينيها قطرتا فخر وحنان..واستدارت نحو الصبايا تبتسهـ في دموعها ..

الحلقة السادسة

تناقل الحيّ أخبار حبّ سعيّد وحيزية.. وزاد الناس على ذلك الكثير مما ينسجه الفضول والثرثرات في مجالس النساء والرجال عادة..وبلغ الأمر والد حيزية فحجبها عن ابن عمّها، لا رفضا له ، بل اتقاء لكلام الناس حتى يبلغ الكتاب أجله..وقد أثّر ذلك في حيزية وحفر في قلبها عميقا ..ولعلّها في لحظات ظهيرة ، وقد أخلد الحيّ إلى القيلولة ، قد اتكأت على مسند لها ، وراحت تستعيد زمان صباها إذ لم يكن بينها وبين ابن عمّها ما يحول بينهما من الحوائل، وقد تراءى لها سعيّد الصبيّ في عباءته الصوفية وشقاوة الطفولة، فقالت تحدّث الطيف بين السر والهمس:

كنّا - أتذكرُ ؟- كنّا أروع اثنينِ
وقد تبدّل وصْلُ الأمس بالبينِ

كنّا سعيدينِ في أحلى طفولتنا
هل تذكر الأمس إذ كنا صغيرينِ؟
فهل برأيكَ سوف الله يجمعنا؟
أم سوف نكمل عمرينا بَعيدينِ ؟
أتلك دعوة مَن يرجو تفرّقنا ؟
أم قدْ أصبِنا أيا ابن العمّ بالعينِ ؟

ثمّ تخيّلتهِ شابا ناضجا ، كأشدّ ما يكون الرجال وسامة ووفاء وإشراق ابتسام ، وهو يقول لها بعينيهِ الحانيتين:

كنّا ونحن على عهدٍ كما كنّا
ما قد تبدّل ما فينا .. ولا خُنّا
وإنّ حجبكِ لا يعني تفرّقنا
أو أننا بعد عهد القرب قد بِنّا
لئنْ ترحّلَتِ الأطيارُ، كان لنا
من بلبل الحبّ ما في أمسنا غنّى

وذاك مكتوبنا مِن قبل مولدنا

ما كان يخطئنا ،أو ينتهي عنّا

ولستُ أوّل مَن تنأى حبيبتهُ

ولستِ أوّل من في البعد قد جُنّا

وقَبْلنا كان عشّاقٌ كحالتنا

والحبّ أكبر منّا يا أنا سنّا

في ذلك المساء ، وقد بردَ قرص الشمس عصرا ، كان سعيّد قد سمع خبر احتجاب حيزية ،وتردّي صحتها بذلك، هو الذي لم يبصر لها ظلا منذ أسبوع ، ولم يجد من وسيلة يوصل بها ما في قلبه من ضيق وحزن ، سوى أن يهزّ عقيرته يترنم، ويُسمعها:

عمَّ اكتئابكِ يا محجوبتي عمّا ؟

لِمَ البكاءُ، أجيبيني، لمَ الحمّى؟

أتتركُ الوردة الحمراء روعتها ؟
فأيّ شيءٍ عليه ننحني شمّا ؟
وكيف تتركُ شمس الصيفِ طلّتها
على الحقول ؟ ولو يوما..ولو يوما
هيا اغسلي وجهكِ الفتّانَ وابتسمي
ولتتركي الدمعَ، والأحزان، والهمّا
سأعبر الآن ، كي أرتاحَ، قربَكمو
وأشبعَ الصدرَ مِن خيماتكمْ ضمّا

وابتسمت حيزية وهي تسمع من سعيّد هذا الكلام الذي لا يقوله ولا يفعله إلا المجانين والعشاق،على قول القائل:

(أمرّ على الديار ديار ليلى
أقبّل ذا الجدار وذا الجدارَ
فلا حبّ الديار سكنّ قلبي
ولكن حبّ من سكن الديارَ)

oberkandi.com

وجـــرت إلى المطـــلّ ترســـل عينيهـــا الجميلـــتين الذابلتين،تكحّلـــهما بـــابن عمهـــا الـــذي أحـــسّ بإطلالتها،وهمس عابرا:

سبحان من خلقَ الإنسان في كبَدِ
كغيمةِ الصيف بين الحرّ والبَردِ
أحبّ بسمتك الخضراء ، أعشقها
حماك ربك لي دوما من الحسدِ
صراحةً ،ضحكة العينين تعجبني
أقول، تقتلني..تجتاح بي غددي
ويفعلُ الكحلُ بي - والكحل مشكلتي-
ما عادة تفعلُ الحلوى لدى ولدِ

وابتسـم ، وابتسـمت..وقـد أحسّـا أنّ القلـوب لا يمكـن حجبها..

obeikandl.com

الحلقة السابعة

لأنّ حيزيّة كانت وردة بين صبايا الحيّ ، فقد تهافت عليها الخُطّاب ..ورغم أنها لم تكن لترضى بأحدهم،فقد وجدتْ في ذلك وسيلة تشعل بها غيرة ابن عمّها سعيّد وتستحثه ليتقدّم لخِطبتها..ولعلّها وجدت الفرصة سانحة وقد انتشر خبر آخر خاطب لها وهو ابن أحد أعيان حيّها،فأخرجتْ قلمها الذي كانت تكتب به في سنوات ترددها على الكُتّاب، وكتبت إلى سعيّد تقول:

خُطّابُ حسني كثيرٌ ..ربّما تدري
والعمرُ ، عمركَ أو عمري،بنا يجري
وأنت تعرفُ ما يعنيه حبّكَ لي
وأنتَ أروعُ ما قابلتُ في عمري
وأشتريكَ بروحي..أشتري نفَسا
مِن ريح صدركَ بالألماس والدرّ

وسين إسمكَ في قرطي وأسورَتي

وما تدلّى من المعقودِ في صدري

وفي الخلاخل..يا للسين ما فعلتْ

وفي حزامٍ من الأصدافِ في خصري

وفي ذراعي كلامٌ لا أبوح بهِ

سرٌّ لأنثى تريحُ القلبَ بالحبرِ

غبار ثوبك أغلى ما تمسّ يدي

وفي جواركَ كوخ الطين كالقصر

ومن يديكَ يصيرُ الطين زنبقةً

وفي شفاهكَ يغدو الصمتُ كالشّعر

ألم يقولوا هدايا الحبِّ غاليةٌ

وقد تفصّل فستانين منْ شبرِ ؟

وقد ترصّعُ فصّا سعرهُ بلدٌ

بما يكونُ ك (ضرس العقل) من صخرِ

أنا أريدك أنتَ،الغيرُ أُعجبُهمْ

وليس يعجبني شخصٌ من الغَيْرِ

أنا أريدكَ كلّ الناس تعرفها

أنا أريدك في جهري وفي سرّي

ولستُ أرغبُ في شيء، وأمنيتي

عُشٌّ صغيرٌ بقشّ الضوء ، في البدرِ

حنانُ عينيكَ - يا عينيّ- شرط أنيـ

ونبض قلبكَ - لو أحسستُه- مَهري

حين قرأ سعيّد الرسالة ، ورغم ما يعرفه من دلال النساء في هذا الأمر، أحسّ بنُدبة تصيب قلبه وتدميه ..وكتب إليها بشيء من الأسى وقد أحسّ بنفسه عندها ككل أولئك الخُطّاب .. هو الذي يتنفسها هواءً..:

بما كتبتِ من الأخبار يا بصري

قسمتِ قلبي إلى نصفين ، فاعتذري

ألستِ تدرينَ أنّ النارَ في رجلٍ

تكون في أكثر الحالات مِن خبرِ ؟

أنا أغار كثيرا.. ليس يعجبني
أن تخبريني بمن دقوا على وتري
وخاطبُ البنت إن لم يشوِ أضلعها
كطالبِ القربِ في حلمٍ من القمرِ
فإن هززتِ لهم رأسا بـ (لا)، رجعوا
بذيل خيبتهم عوْدا على أثرِ
والأمر عندكِ.. فاختاري الذي يدهُ
تحسّ كفّكِ فيها أسطُرَ القدرِ
فأنت غيمة مكتوبٍ ، مسافرة
والله أعلمُ من تسقيه بالمطرِ

تركت رسالة حيزية لدى ابن عمّها أثرا.. وحين كان المغرب يرخي غبشه على الحي، كان سعيّد يسعى في بعض شأنه ، بينما صورة معذبته تتراءى كالخيال،ليخاطبها في سره:

رأيتُ منك نجوم الليل في الظهرِ
ممن تعلّمتِ فنّ الحبّ بالشرِّ ؟
ألست بالله يا (حيزيُّ) مسلمةً ؟
أليس يحرمُ قتلُ المرء بالسحرِ؟
عامان مرّا .. ويكفيني ، فقد تعبتْ
حبال قلبي بأضلاعي مِن الجرّ
وغمزة حلوة من عين آنسةٍ
تكفي لتوصل كلّ القول للحُرِّ

أمّا هي فكانت قرب خيمتها تنفخ النار ، تعدّ العشاء،وفي قلبها نشوة المنتصر الذي أصاب ما رمى.. وأدمى ما أصاب.. هي التي تعرف جنون غيرته ورقّة شعوره.. وقالت وهي تبتسم :

أشويهِ بالخوف.. أُذكي فيه غيرتهُ
وأسوأ الحبّ حبٌّ دون أضرارِ
وقد أزيدُ - لكي تهتزَّ راجفةً
أغصانهُ رغم كل الحبّ- إعصاري
أحبّ رؤيتهِ في الجمر .. يعجبني
توجُّعُ الرجلِ الولهان في النارِ
ولي لديه بحقِّ ثأرُ مَنْ عشقتْ
وسوف آخذُ ممنْ هدّني ثاري
وكم أحبّ إذا قالوا تجنّنهُ
وكم أسرّ إذا أبكته أخباري

oberkandl.com

الحلقة الثامنة

مرّت أيام وفي نفس سعيّد من حيزية شيء .. يدفعه قلبه إليها، ويبعده ما يحسّ من جرح الغيرة ..يبتعد عن دروبها ويتناءى عن خيمتها كما لم يكن العهد به.. أما حيزية فقد أحسّت بالأيام أعواما.. ولم تكن تستطيع الصبر أكثر،لذلك افتعلتْ ما يستوجب إرسالها إلى بيت عمّها،وكان لها ذلك ..

كان صباح الشتاء البارد يلسع خديها وهي تقترب من بيت عمّها ، والد سعيّد ، بينما قطرات متفرقة من المطر تنقرُ يدها أو وجهها أو ثوبها بين حين وحين ..

كان قلبها غائما كذاك اليوم من أيام أوائل الشتاء .. وفي رأسها عواصف من الغضب والهواجس والأسئلة..

وما إن اقتربت حيزية من الخيمة حتى رأتها والدة سعيّد ، فرحّبت بها وهشت لمرآها .. وبسطت لها في العيون زرابيَ ومفارش .. وعانقتها عناق المشتاق ..

في الخيمة لم تكن حيزية لتمنع عينيها من معانقة كل تلك الأشياء التي تعرفها منذ الصغر..إذ هنا تربّت وكبرت ولعبت ونامت وقامت ...والعمّ بمقام الوالد .. وكان لبرنوس سعيّد المعلّق من عينيها الحظ الأوفر، وما كانت لتكسر عينيها عنه إلا خوفا من ملاحظة زوجة عمّها..

وما هي إلا ساعة حتى همّت بالمغادرة ، إذ لم يكن سعيّد في البيت ، وقد خجلت من أن تسأل عنه ..

خارجة من خيمة عمّها ، التقت حيزية وزوجة عمّها بسعيّد راجعا من بعض شؤونه ، ووقف الثلاثة جامدين صامتين.. وقد أحست والدة سعيّد بما تستدعيه الحال،فانسلّت معتذرة متحججة ببعض أعمالها ، بينما حدجت حيزية فتاها بنظرة تذوّب الصخر ، جمعت فيها بين الشوق واللوم .. وقالت بصوت يكاد يختلط فيه اختناق الغضب برقة العتاب :

بعُدتَ عنا ..فكيف الحال يا القاسِي ؟

يا كلّ دنياي، يا أهلي، ويا ناسي

وما أتاني جوابٌ منك يخبرني

فهل عليك (بعيدَ الشرّ)[3] من باسِ ؟

إذا ذكرتكَ .. هزّ الشوق أوردتي

ورحتُ أضغط أضراسي بأضراسي

آلام حبّكَ..حمّى لا تفارقني

وزاد سوئي صداعٌ شقَّ لي راسي

أنا أحاول أن أخفيكَ..والدتي

تراقب الوضع ..في نبضي وأنفاسي

لكنّ حبّك زلزال يشقّقني

ويخرج الخَبء[4] من أعماق إحساسي

---

[3] - المقصود : فهل عليك يا بعيدَ الشرّ من باس..

[4] - الخَبء: بفتح الخاء ، المخبوء ، وفي القرآن الكريم : (الذي يُخرجُ الخَبءَ في السموات والأرض).

obeikandl.com

أكون بين نساء الحيّ جالستةً
ولستُ أسمعُ ما يحكيه جلاسي
ملكتَني يا مليح الوجهِ..صرت دمي
وصرت شكّي، وأفكاري، ووسواسي

وأنت تعرفُ ما الأنثى إذا ابتليتْ
بعاشقٍ لا يبالي ،غائبٍ، ناسِ
أفضت كأسي ...وهذا الأمر يتعبني
فهل سيبقى طويلا هكذا كاسي ؟

في لحظات ومن كلمات وتحت وقع نظرات ، نسي سعيّد كل ما كان يتحجج به للبعد.. ولم يتمالك نفسه وعيناه تغرقان في كل ذلك الجمال الأسطوري لابنة عمّه ، وقال في دهشة كأنها دهشة اللقاء الأول:

obeikandl.com

كحسن وجهك في النسوان لم أجدِ
ومثل نارك ما أحسستُ في كبدي
لذا وهبتكِ هذا القلب مشترطا
أن لا يكون لعمر، بل إلى الأبدِ
كوني فُراتا ..سأبقى ظامئا أبدا
لو كنتِ غيركِ من كأسين لم أزدِ
ما أروع الماء من كفَّيْ مراهقةٍ
لعاشق لاهبِ الأضلاع مبتردِ
والحب يمسي بلا معنىً إذا كثرتْ
به الأوانسُ ..ليس الحبّ بالعددِ
وأنت وحدكِ في عينيّ آنستي
وليس غيرك في عينيَّ من أحدِ
ولتقرئي (قل أعوذُ)..الخوف يقتلني
مِن أعين الناس ، والحسّاد، والحسدِ
ومن بنات قريباتي، ومعجبةٍ
تغار منكِ، ومن نفاثةِ العقدِ

كانت والدة سعيّد سعيدة وهي تراقب ابنها من بعيد مشرقا مبتسما ، وقد رأت ما كان فيه منذ أيام من الضيق والكدر،وقد زاد يقينها الآن أن داء العشاق هو دواؤهم،وأنّ من يحزنهم هو الوحيد القادر على إسعادهم.. وأن حيزية التي هي الآن سرّ بسمة سعيّد،هي نفسها التي كانت طوال أيام وراء انطوائه وصمته وعزوفه عن الدنيا..

كانت والدة سعيّد تعرف جيدا قصة حبّ ابنها وحيزية،وكان الخوف يمزّقها حين تفكّر في احتمال أن يحدث ما من شأنه أن يحول بين ابنها وابنة عمه.. وكانت معجبة مثل غيرها من نساء الحيّ بهذا الحبّ العنيف في صمت،المجنون في تعقّل، الوفيّ في ثورة..والذي أضحى حديث الحي كله..

ولعلّ والدة سعيّد قد تذكّرت ما سمعته من بعض كبار السنّ من قصص وروايات الحبّ القديمة، ولعلّها كانت ترى تلك القصص نموذجا في الوفاء وفي الطهر والعفة

والجمال والرقة، لكل محبّ، ولعلها قالت في نفسها وهي تراقب من كانت لسنوات تدعو الله أن يجمعهما:

من كان يعشقُ ، فليعشقْ كما عشِقوا
وليحترق في هواهُ مثلما احترقوا
وليحتمل ، إنما الشكوى علامة مَن
يمشي إلى الحبّ في شكّ ولا يثقُ
والسابقون ..شيوخ الحبّ كلّهمْ
كم جرجموا المرّ..كم غصّوا.. وكم شرِقوا
جَنَوا ،وحنَوا ، وما جفتْ لِحًى لَهُمُو
من الدموع ، وكم ذاقوا وكم شهقوا
وكم تجمّد منهم ناظرا خبرا
فتى على لهبٍ، نظراته قلقُ
وكم تشرّدَ منهم في الدروب أسى
مَن هدّه السيرُ والترحال والطرقُ

في كفّه صورة للناس ، يسألهم
(من قد رآها) .. نحيلٌ ، ثوبهُ خِرَقُ
لها بجيبيه ذكرى .. زهرة يبستْ
رسائلٌ بليتْ..منديلها.. ورَقُ
وكم تمنوا وما نالوا ..وكم حلُموا
وكم تناءَوا بأرض الله وافترقوا
وما رأى الناس عينيهم ولو هملتْ
ولا رأى الناس شكواهمْ ولو شُنقوا
وكان قولهمُو : (من كانَ محترقا
فليستر النار، وليصبرْ، كمن سبقوا)

ولوّحت حيزية لابن عمّها بعينيها ، وهي تغادر ساحة خيمته آيبة ، وعلى وجهها بسمة واسعة بحجم دنيا..وفي قلبها حنان غامر وسعادة راقصة.. بينما كانت قطرات المطر قد ازدادت وتقاربت .. لتكون الصبية السعيدة ماشية إلى خيمتها تحت المطر.. ويكون الفتى السعيد يراقبها مبتسم العينين ..تحت المطر..

الحلقة التاسعة

بلغَ حيزيةَ ما تناقله الحيّ مِن أنّ فارسها سعيّد يسرّ من حبّ (صبية) اسمها (حَدَّة) ما انتشر خبره .. فحملت في قلبها ما تنوء به الجمال وتنهدّ له الجبال .. وعاشت أيّاما ولياليَ تسقي حقول الورد في خدّيها بسواقي الملح من عينيها ..حتى اصفرّ خدّها وشحب وجهها ..وورود الخدين يذبلها السقي ولا يحييها.. وقد عقدت العزم وحلفت الأيمان أنها لن تنظر إلى وجه ابن عمها بعد ذلك إن صدق قيلُ الناس وصحّت أخبار مجالس سمرهم ..

وهي ذي اليوم تخرجُ إلى نبع الماء منفردة كغزالة نفّرها الحزن من قطيعها .. أو عصفورة أبعدها الجرح عن سربها .. وكان من تصاريف القدر أن تلتقي سعيّد في طريقها ،ولم يكن يعلمُ أنّ بحيزية ما بها ، فهمس مغازلا وهي تقترب منه عابرة دون أن تلتفت، وفي ساقيها للخلاخل أعراس وصخب جميل:

بعض الخلاخلِ في السيقانِ زنديقُ

إن رنّ جفّ بثغرِ السامعِ الريقُ

لا وفّق اللّه خلخالا بلا أدبٍ

ولا تباهتْ بهِ في فتنةٍ سوقُ [5]

ولا تمايلَ قدٌّ من دَلالِ صِبا

يجنّن الخلقَ بالتمييلِ،ممشوقُ

ولا تحرّكَ رِمشٌ فوق مروده

ولا تبلّلَ بالدمعات (عبروقُ) [6]

ولا تضوّع عطرٌ مِن مراهقةٍ

شرّيرةٍ، قلبها بالحبّ محروقُ

والعطرُ حينَ تمسّ العطرَ عارفةٌ

بالعطرِ، يقتلُ مَن في أسرهِ سيقوا

---

[5] - جمع ساق، كالسيقان.

[6] - العبروق في دارج لهجات أهل المغرب العربي (البرقع) ، ولعله تصحيف (عبروق برقوع) ..أو لعله من فائت الفصيح مما تناقله العرب الوافدون إلى أفريقيا في هجراتهم.

أغرىٰ الجميلةَ منا صبرنا فطغتْ

فليس يعجبها في الناس مخلوقُ

جمالها غير عاديٍّ.. ومختلفٌ

كأنه من بلاد السحرِ مسروقُ

ومن قديمٍ، طويلُ الرمش يعجبهمْ

وواسع العينِ بين الناس معشوقُ

وظنّ سعيّد أنّه سيطرب حيزية بما قال ، لكنها أحست بجرحها يزداد اتساعا ، ومسحت من عينها دمعة ساخنة وهي تقول دون أن تلتفت أو تتوقف:

لكنّنا قد سمعنا عنكمُ خبرا

لا سامح اللّهُ مَن في البالِ إن غدرا

وقد تحدّثَ أهل الحيّ أنّ بكمْ

حبًا (لحدَّةَ) ..لا تبديه ، مستترا

جننتُ منكَ.. أريدُ الصدقَ..هل صدقوا ؟
هل خنتَ عهدَ قليبٍ ؟ هل تراك..؟ ترىٰ...؟
ولا دخانَ بلا نارٍ..وقد ذكروا
ودون غيمٍ ، ترىٰ مَنْ يذرفُ المَطَرا ؟
هل خنتَ عهدي، وخنتَ الملحَ؟ يا أسفي
فكيف تكسر قلبا عاش منتظرا ؟
ولستَ شاعرَ فصحىٰ كيْ تجنني
بها ، ولستَ علىٰ علمي من الشُعَرا
فهل بجوفكَ نار الحبّ قد بردتْ
نحوي ، أمِ الصهدُ[7] في جنبيكَ قد فترا ؟

وظنّ سعيّد أنّ ما تقوله ابنة عمه مجرّد غيرة ودلال نساء،وما كان ليهتمّ بشكوك صبية يحبّها كعينيه وأكثر،فراح يقول:

1- [7] - الصهد: الحرارة.

إنّ الجميلاتِ عند الشك نيرانُ

ومن تحبّ إذا غارت ، فبركانُ

فكيفَ أنقل قلبي عن محبّتكمْ

وما سواكِ بهذا الكونِ نسوانُ ؟

وما لقلبي ميولٌ نحو غيركمو

وما لهُ دونكمْ في الأرضِ عنوانُ

لكنّ ما قيل كان أكبرَ من أن تمحوه كلمات قليلة،وكان في قلبها مساحات قحط متشققة بحاجة إلى أنهار من الكلام لتزهر بعد إمحال.. فقالت وهي تجاوزه في صرامة حرة جُرح قلبها:

ألا تريحُ فؤادا هدّه الهلعُ

أضحى بما قيلَ كالفخّارِ ينصدعُ ؟

أحُبّ (حدّة)([8]) قد أنساكَ من بقيتْ

عمرا تشدّ خيوط الحلمِ..لا تدعُ ؟

وعشتُ عامين أدعو الله ،ناذرةً

أصوم دهرا إذا كنا سنجتمعُ

أنت ابن عمّي ..أحقّ الناس بي رجُلا

كل الطيور على أشكالها تقعُ

فكيف تعشقُها - قل لي- وتعشقني؟

وكيف قلبك للعشقينِ يتّسعُ

دمّرتَ روحي..أحسُّ البحر يجرفني

والنارَ موقدةً حمراء تطّلعُ

أنهيتَ ما كانَ يا خدّاعُ يجمعنا

فمنْ بوعدكَ بعد الآن ينخدعُ ؟

[8] - حدّة..ثلاثة أحرف وشدّة ..من أسماء الإناث المنتشرة في بعض بلاد المغرب العربي.

obeikandl.com

ووقف سعيّد جامدا مذهولا وقد أحسّ أنّ الأمر جدّ،بينما نأت حيزية يخنقها البكاء وقد زاد يقينها أنّ تهرّبه من الجواب هو تأكيد لما قال الناس وتناقلوا..واهتزّ ثمة ناي حزين ينشر لحنا يكسر القلوب ولا يداوي..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة العاشرة

هذا الشتاء في آخره ..وللشتاء في وداع الحقول والبراري طقوس آسرة، يفتح فيها كفه عن نبتات جميلة هي بدايات الربيع ، تماما كما يفعل من يطلب من طفل صغير أن يغمض عينيه ، ثم يفاجئه عند فتحها بشيء جميل في كفه .. وقد انقطعت حيزية عن سعيّد بسبب ما سمعته من كلام الناس حول تعلّقه بحدّة ..ومضى شهر ، لم يرَ فيه سعيّد وحيزية بعضهما .. وقد بدا الأمر جديا وخطيرا .. وارتجف قلباهما من ذلك ..وتوجّسا.. وجاء يوم..

كان من عادة الحيّ أن يقيم مسابقات في الفروسية ..وقد اجتمع أهل الحيّ في هذا الصباح على مشارف حيّهم لمتابعة هذه المنافسة .. والفروسية عند هؤلاء مقياس للرجولة والشجاعة والنبل.. وهي خُلق قبل أن تكون رياضة..

اجتمع الرجال في ناحية حول الميدان ، بينما نأت النساء بأنفسهنّ قليلا ، بقدر ما يحقّق أنْ تُرى إحداهنّ فلا تُعرف .. ورحنَ يتهامسن بآرائهنّ ..كانت أمنية سعيّد الكبرى أن تكون حيزية حاضرة .. ولم تكن هي لتفوّت هذه الفرصة ..ولربما كانت تريد له الخسارة لتشفي غلّها منه.. وقد اندسّت بين النساء ، يعتصر قلبها بين إحساسين متناقضين،إحساس يذكر الودّ القديم للحبيب الأول ، وإحساس بالانتقام ممن نسف عشّ الأحلام وبعثر قشه وألقى أعواده في مهبّ الريح ..بينما كان سعيّد يختال على جواد مختال ، وفي نفسه:

يومُ السروجِ ويومُ الخيل واللُّجُمِ
وما تهزّ رِكاب السّرج من قدمِ
يقول لي القلبُ قلبي أنتِ حاضرة
يا أقرب الغيد لي في الحبّ والرحمِ

عيناكَ ترقبني ، أدري ، ويعجبني
أن ترقباني برغم الحزن والألمِ
وقد أتيتِ، ونصفُ القلبِ يهتف لي
ونصفه الآخرُ الثاني لتنتقمي
وتعلمين بأنّي في الصعابِ لها
من دون هزة أكتافٍ ولا قسمِ

كان قلب حيزية يهتز كطائر ، يضرب أضلاعها بجناحيه،وقد اختلطت فيه النشوة بالخوف ، حتى لم يعد يعرف نوع هذا الشعور الذي يداهمه في تلك اللحظة ، وهل هو التوق إلى التشفّي في سعيّد منهزما.. أم التوق إلى الفخر به منتصرا ؟..
ودوّى صوت طلقة البارود معلنا بداية السباق ، وانتفخت برانيس الفرسان خلفهم ، وطارت تتبعهم أذيال عماماتهم،وحبست الأنفاس وعلا النقع وازداد النبض واشتدّ التوجّس وركضت القلوب على المضمار أسرع ممن

ترجو له الفوز من الفرسان.. وكانت عين حيزية على ابن عمّها ، وعلى فارس آخر بجواد أبيض بدا أنه ينافسه بشراسة.. وكانت تميل إلى الحب القديم فيهتف قلبها لابن عمها، ثم تتذكر حدّة والجرح والغدر فتتمنى أن يفوز الفارس الآخر على ابن عمّها..ولأنّ الرياح تجري عادة بما لا تشتهي السفن فقد...

أنهى سعيّد السباق لصالحه ، وتصدّر المتسابقين .. ونزلت من عين حيزية دمعة ، وكانت رغم كل ما بها ، تريد أن تقول للنسوان اللائي كنّ يخطفن أبصارهنّ إليها يراقبن ملامح وجهها :

هذا الذي رغم كل القالِ والقيلِ
طرّزتُ صورتهُ يوما بمنديلي
وكان يخبرني عن همس أضلعهِ
وإن أحسّ بشيء كان يشكو لي
وكنتُ أسكِنهُ في الرمش خائفةً
عليهِ من طلقةٍ تُدمي، لمجهولِ

والآنَ صرنا كأن لم نجتمعْ أبدا

ولا تغنّى بقدّ البانِ في طولي

ولا مشى في دروب الحيّ في أثري

ولا هذى بجمالي مثل مهبولِ

أشدّ ما منه يؤذيني ويجرحني

تجاهلي ببرود غير مسؤولِ

وكم تمنيتُ أن يأتي ليخبرني

بأنه نادم جدا.. ويحكي لي

على وقع الدهشة رجع الناس إلى بيوتهم ، حديثهم سعيّد ..وكانت نشوة (حدّة) كبيرة ، فقد أحسّت أنّ ما حدث سيزيدها فخرا بين الصبايا والنساء وقد نسجن عنها وعن سعيّد ما تعلم هي قبل غيرها أنه ليس صحيحا.. أما حيزية فما إن دلفت إلى خيمتها حتى ارتمت على فراش تبكي حظها العاثر بكاء مرا ..وكانت والدتها تفهم كلّ ما يحدث لها دون أن تسألها..

ومرت ساعات .. وبعد عصر ذلك اليوم فوجئت حيزية ووالدتها بزيارة والدة سعيّد لهما.. وعلى القهوة تهامست النساء ، وكان أكثر كلام حيزية صمت دامع.. لكنّ مفاجأتها ومفاجأة أمها كانت كبيرة ، إذ أخرجت أمّ سعيّد وسام الفارس الذي نالـه سعيّد صباحا في السباق،ومدّت به يدها إلى حيزية..

وكان من العادة أن يهدي الفائز وسامه لأحب الناس إليه..وكانت ظنون حيزية صباحا قد ذهبت إلى أنّ الوسام سينتهي بين يدي حدة لا سواها ..وكم أحست بالمرارة في حلقها لذلك..

اضطربت يد حيزية في تردد وهي تمتد لأخذ الوسام من زوجة عمّها..وشجعتها أمها بعينيها الدامعتين المتأثرتين دون أن تقول شيئا ..وأخذته ثم جرت به نحو خيمة أخرى للعائلة ، وقد أجهشت بالبكاء..

فكت حيزية رباط المنديل الذي صُرّ فيه الوسام،ووجدت معه رسالة فتحتها في عجلة لتقرأ:

قولوا لها..إنّ حبّ الأمس لمْ يزلِ
والحقّ ذاك ..وغيرَ الحقّ لم أقلِ
أنا لها .. لم أبدّلها ولا نظرتْ
عيني لأخرى ..ولم أُعجَبْ.. ولم أملِ
إن ادّعتْ (حدّة) أنني مجنّنها
فذاك منها ، وأيّ الذنب يُنسبُ لي ؟
بعض النساء إذا غارتْ ولو خطأً
تقوم تحسم كلّ الأمر في عجلِ
تبكي ، وتلعن (جدّ الحبّ)، في غضبٍ
وتعلنُ الحربِ في حقدٍ على الرجلِ
فكيف يحدث يا مجنونةً مثلا
أن أترك الشمسَ - أنت الشمسُ- للزحلِ؟

وشرح سعيّد لحيزية في رسالته أنّ كلّ ما قيل لغو وبهتان ..وأنّه ما أحبّ غيرها ولا أسهره الليل لغير ذكراها..

وما كادت تنهي قراءة ذلك حتى انبسطت أساريرها،وارتسمت على شفتيها بسمة الرضوان خفيفة شفيفة .. وجرت إلى زوجة عمها تقبّلها ، وقد عرفت أمّ حيزية وأمّ سعيّد أن حيزية قد رضيت وأنّ دماء الحب قد عادت في قلبها إلى مجاريها.. وابتسمت المرأتان في دهاء ومكر نسائي..

obeikandl.com

الحلقة الحادية عشرة

كان قد مرّ أكثر من أربعين سنة على احتلال فرنسا للجزائر ..وهي ذي جمعية تنصيرية فرنسية ،تقوم بزيارة حيّ حيزية ، وكان في الوفد أطباء وباحثون ومنصّرون ومصوّرون..ومرافقون من العسكر.. وكان حرص هؤلاء كبيرا على مقابلة النصف الثاني من المجتمع ، النصف المستتر بحكم التقاليد والأعراف والدين.. وقد طلبت إحدى المنصّرات لقاء بعض صبايا الحي ، فرفضن ورفض الأهالي ذلك ، وما كان من الوفد إلا أنْ رضيَ بالحديث إلى صبايا رائحات أو غاديات لحاجاتهنّ.. وكان أن اعترض مجموعة من النساء راجعة من نبع الماء ، وبينهنّ حيزية..

وجها لوجه تقابل الجمعان.. وكانت مسؤولة المنصّرات جريئة لدرجة أنها نصحت البنات بكشف شعورهنّ ليكنّ أجمل ، رغم أنها لم تكن هي نفسها تكشف

شعرها، وقد مدّت يدها إلى وجه حيزية وقد رأتها أجملهنّ ، لتحرّر خصلة من شعرها ، نموذجا ومثالا .. غير أنّ حيزية ردّتها بشراسة لبؤة ، وهي تردّد : (ولم لا تحررين أنت شعرك أيتها الأخت؟).. وغضبت المنصّرة والوفد .. وكاد الموقف أن يشتعل ويأخذ أبعادا أخرى..

في ذلك المساء ، لم يكن للحيّ حديث غير ما فعلته حيزية .. وقد أثنى فقيه الحيّ على هذه الصبية التي شرّفت الشعب كله، وأعطت للمستعمرين درسا .. وقد وجدها سعيّد فرصة ليزور بيت عمه مع والدته وشقيقته ..

أمام خيمة والد حيزية ، وقف سعيّد يتأمّل ابنة عمه بنظرات خاطفة ، في إكبار وافتخار..مستغربا من شراستها تلك التي لم يكن يعرفها فيها ، إذ لم يرَ فيها يوما غير الرقة..ولم تنتظر أن يسألها عن شيء ..فقد كانت تعرف كلّ ما يدور برأسه ، وقالت وهي تبتسم:

كرهتها ..رغم أنّي أجهل السببا

وقد تمنيتُ لو قطّعتُها إربا

ما إن سمعتُ ..وقد كانت تحدّثني

حتى تزلزلَ قلبي فيَّ واضطربا

ألستُ مسلمةً ، والأرض أرض أبي

فكيفَ تأمرني بالرجس يا عجبا ؟

نسوا بأنّ لنا ديناً كأعيننا

يفوقُ في سعرهِ الألماسَ والذهبا

وكدتُ أصرخ فيها وهي واجمةٌ :

((يا ويلكم من حبيب القلبِ إن غضبا))

ووجدها سعيّد فرصة ليحرجها بسؤاله وهو يصطنع الغضب والغيرة ، رغم ابتسامة خفيفة لم يستطع منعها على شفتيه:

هل قلتِ فعلا(حبيبِ القلبِ)..أمِ أنّي
كبرتُ فعلا، وسمعي قلَّ بالسنَ
وهل أكذّب سمعي ؟ أمِ أخطّئني؟
لا تنكري ..لمِ يزل ما قلتِ في أُذْنيه
مَن تقصدينَ بهِ ؟ سمّي لأعرفهُ
وكي تزول شكوكُ السوء عن ظنّي
وهل من الإنس ؟ مثلي في ملامحهِ
حبيب قلبكِ؟ أمِ شخصٌ من الجنّ ؟
إن لمِ تسمّي ..بكى قلبي وآلمني
وأنتِ أدرى بقلبي يا أنا منّي

واحمرت وجنتا الصبية ، وانكسرت عيناها إلى الأرض،وتحوّلت من لبؤة شرسة جريئة وهي تروي لهِ قصتها مع المنصرين ، إلى أنثى تقطر رقة وعسلا ..وأربكها السؤال الذي يقتضي تهرّب الصبايا الحييات مثلها.. وقالت هامسة دون أن ترفع عينيها:

غدا أجيبُ - بإذن الله- يا رجلُ

أو بعد عامينِ إن أبقانيَ الأجلُ

ومَن يحاصرها مثلي محاصرها

تصيبها دوخةُ الأنثى.. وتنفعلُ

وكلّ من سئلتْ عن سرّها علنا

تقول (سوفَ..على عيني) ..لمن سألوا

والسرّ يظهرُ إن أخفته منكرة

وليسَ يحجبهُ الإنكار والجدلُ

وإن تفتقَ كالرمانِ من خجلٍ

وحمّرَ الخدَّ ، لا تجدي به الحيلُ

فطوّل البالَ..إني الآن مربكةٌ

واصبر عليّ، أنا ما عدتُ أحتملُ

كانت الصبية قد فضحت نفسها بما قالت ، وأعلنت ما أرادت إسراره ، وقد تفتّق حبّ الرمان في خديها خجلا

فقال خداها ما لم ترد قوله .. وقال لها سعيّد وهو يبتسم ابتسامة المنتصر:

إن كنتُ في النارِ ..قولي كيف أصطبرُ ؟
أنا ابن آدمَ، لحمٌ.. ما أنا حجرُ
طول النهار أسلّي القلبَ منتظرا
ولستُ أعرفُ ما بالضبط أنتظرُ
عيني تميل ، أغضّ الطرفَ، تغلبني
إذا بدوتِ، ويغريني بكِ النظرُ
وأمسكُ النفس عن طرقي لبابكمُو
إذا مررتُ بهِ في العصرِ أعتصرُ
أمّا الحنينُ فربّ الناس يعلمهُ
وإنْ تحرَّكَ لا يبقي ولا يذرُ
روائح الخبز تشويني ، وقهوتكمْ
وريحة العطرِ في الأرجاء تنتشرُ
وصوتُ صمتكِ مثل الناي يجرحني
وخيمة الشعرِ، والأوتاد، والوبرُ

فكيف أصبحتِ في عامينِ لونَ دمي

وصرتِ دورتهِ الكبرى ..فما الخبرُ ؟

وكيف أصبحتِ في عامين فاتنةً

ولا يصيرُ بقرن هكذا القمرُ ؟

وكيفَ حبّكِ قولي لي تسلّقني

كالياسمين؟ أحظٌّ؟ أم هو القدرُ ؟

ولو فتحتُ لك الأضلاعَ معترفا

رأيتِ قلبي على التنّور يستعرُ

سبحان ربّكِ كيف الحبّ غيّرني

ولو تجمّع أهل الأرض ما قدِروا

وكنت قبلكِ لا ترتجّ لي رُكَبٌ

وقد ألومُ أناس العشق إن سهِروا

ونادتهما والدة حيزية من داخل الخيمة لشرب القهوة .. فتبادلا نظرتين ..ودلفا ..

obeikandl.com

الحلقة الثانية عشرة

ارتفعت في الحي الزغاريد ، ودوّى الدف، واهتزت الأرض بطلقات البارود...وسرت رعشة جميلة ، تشبه رعشة الأرض في بداية الربيع ، إذ تسري فيها الخضرة.. كان الربيع آنذاك في بداياته فعلا .. وهذا عرس زفاف ابن إحدى عائلات الحيّ ، من ابنة عمّة حيزية..

وكما هي العادة ، فقد اجتمعت النساء في خيمة كبيرة.. يغنين ويرقصن ويتبادلن ما اجتمع لديهن لشهور من الأخبار..

ولأنّ الأعراس مناسبات لاختيار النساء عرائس لأبنائهن،فقد اختارت رقية ، وهي امرأة في الخمسين من عمرها ،مكانا لها ولابنتيها الصبيتين ،قريبا من حيزية وأمّها.. وراحت تخطف عينها نحو حيزية ..كأنما تبحث عن شيء أو تريد التأكد من شيء.. ورقية ليست من نساء الحي، بل هي مدعوة من حيّ آخر قريب.. ولعلها

لم ترَ حيزية يوما ، لكنّ ابنها ألحّ عليها بعد أن رأى حيزية حين كان في زيارة أخواله بحيّها ، أن تمهّد الطريق لخطبتها له.. وقد أكثر من الثناء عليها ، بما أذهل والدته..

واستجمعت رقية ما فيها من عزم ، وقالت :

إنّي وجدتكِ فعلا ، مثلما وَصفا
ولم أصدّقْهُ في شيء ، وقد حَلفا
وأنتِ أروعُ مَن رنّت أساورها
وخيرُ مَن زرّرَ الأثوابَ والْتحفا
جمالُ عينيكِ يسبي ..لا نقاش بهِ
ولو تجادلَ فيه اثنان ما اختلفا
يا حظّ مَنْ كنتِ لو يومين زوجتَهُ
وحظًّ مَن بكِ دون الناس قد شرُفا
يصيرُ سلطانَ أهل النخلِ ..قاطبةً
وشيخَ بدوِ صحارى العُربِ والشُّرَفا

إن قال تنصتُ أحياءٌ لقولتهِ

ويتركون جلوس الأرض إن وقفا

فإن رضيتِ، أنا يا بنتُ خاطبةٌ

وإن رفضتِ ، ولم ترضيْ.. فيا أسفى

كسرت حيزيةُ عينيها إلى الأرض خفرا ..وعلتْ خديها حمرةُ الخجل.. بينما طالت رقبة والدتها ، وازداد افتخارها بجوهرتها على كثرة طالبي يدها.. وقالت لرقية:

للبنت في رأسها يا أختُ موّالُ

وليس يقنعها قولٌ لمن قالوا

محروسة مثل فصّ الماس..غاليةٌ

تقال فيها بأهل الحيّ أمثالُ

مخطوبةٌ سلفا ..والله يسعدها

وللقلوب بهذا الأمر أحوالُ

للبنت عمٌّ ، له إبنٌ أشار لها
إن لم يردْ يدها.. للبنت أخوالُ

في مجلس الرجال ، كان سعيّد يستمع إلى قصة قديمة يرويها أحد كبار السنّ، لامرأة أسطورة في الحسن،طلبت لها مهرا ، عجزت كل قبائل العرب عن جمعه لخاطبها ..عيرا وخيولا وذهبا وفضة ولآلئ..
وبرقت عينا سعيّد وهو يستمع مذهولا إلى القصة ، وما أخرجه من ذوبانه ذلك ،إلا سؤال صديقه (رابح) له في أذنه:
(ماذا لو طلبت منك حيزية ما طلبت هذه المرأة الأسطورة؟)..
ولعلّ السؤال قد أهمّ سعيّد فعلا ، فراح يقول في نفسه:

آتي لمكحول عينيه بما طلبا
وأجلبُ الكونَ في كفيَّ إن رغبا

ومِن لجينِ بلاد الشام أجودَهُ
ومِن عُمانَ وأرض الموصلِ الذهبا
ومِن مفارش عكّا ما تُجنّ بهِ
ومِن ملاحفها ما يعجبُ العجبا
ومن دمقس بلاد الهند ، سندسها
حريرها ،خزّها، الممنوع للغُربا
وأتركُ الحيَّ عمرا كي أُفرّحها
وأقصدُ الصينَ إن شاءتْ وأرضَ سبا
وليس لي غيرها ، أحيا لأسعدهُ
في الغيد ، أو غيرها أرضيهِ إن غضبا
والفارس الحقّ مَن في الجدّ، كان لها
ويضرب الصدرَ في عزمٍ إذا خطبا

وعلت أصوات الزغاريد ، فانتبه سعيّد ..وكان الشيخ المسنّ لازال يطيل أذيال حكاية المرأة التي أعجزت قبائل العرب بمهرها..بينما دخل رجال بموائد الطعام ..

obeikandl.com

الحلقة الثالثة عشرة

فزعت حيزية حين ترامى إليها ذاك الخبر الذي سرى في الحيّ سريان الدم في الجسد.. وقد تحدّث الناس عن إصابة سعيّد في رحلة صيد الغزلان بطلق ناري طائش .. وزاد الناس في الخبر وأنقصوا .. وتعددت الروايات وتضاربت،بين من قال إنه مات ، ومن قال إن إصابته طفيفة خفيفة لا تستوجب الخوف عليه .. وهبّت حيزية مع أمها وأبيها إلى بيت عمها ، والد سعيّد ..

حينما دخل الثلاثة عبر الزحام المضروب حول الخيمة،من مستقصين للخبر ، وجدوا سعيّدَ ممددا ، مغمض العينين .. وقد أصيب في كتفه اليمنى ..

كانت عينا حيزية تتأمّلان وجه ابن عمّها .. تتأملان أناقة الفارس الجريح ..وتلك الحمرة التي بدت فوق الضماد كجورية فوق ثلج أبيض..تتأملان اضطراب قسماته من الألم وكتمانه لأوجاعه تصبّرا ومكابرة ..إذ

لا يبــوح الفرســان بآهــات أوجــاعهم شــرفا وترفعــا.. وتحركـت داخلـها كلمـات ..بينمـا تحـدرت مـن عينيهـا عبرات..:

يا ليتها فيَّ.. إي والله ..في كتفي
فهل تألّمتَ؟ يا ويلي ..ويا أسفي
أنينكَ القلقُ المحمومُ يقتلني
وما تحاول أن تخفيه.. في شرفِ
أناقةُ الفارس المجروحِ ، تعجبني
لديكَ .. من غير تفريط ولا سرفِ
حُمّاكَ ، حمرتها .. في الوجهِ آسرة
والزّغفُ وردةُ جوريٍّ على خَشَفِ (9)
والرسمُ يبقى ..جميلا ، فوق آنيةٍ
مهما تغلغل شرخُ الشَقّ في الخزفِ

9 - الخَشَف : بفتح الخاء والشين : الثلج الخشن.

obeikandl.com

شفاك ربّكَ.. يا من قد شُغِفتُ بهِ
وزادني جرحُهُ حبّينِ في شغفِي
عين أصابتكَ ..يا الغالي ..لحاسدةٍ
عينٌ بلا قسمٍ باللهِ أو حلفِ
والعين تأخذ في الفرسان أروعهمْ
وليس تودي بتمر النخل بالحَشفِ [10]

خارجةً من بيت عمّها ، أعطت حيزية لزوجة عمّها (شالها) كي تزمّه رأس سعيّد .. وهي تقول:

زُمّي[11] على رأسه يا خالتي شالي
على الجبينِ وفوق الحاجب العالي

[10] - الحشف: الرديء من التمر، ومنه قولهم (أحَشَفٌ وسوء كيْل؟)

[11] - زمّ يزمّ زما: صرّ وشدّ وربط.. يقال زمّت المرأة المنديل على رأسها إذا ربطته..ومنه شفتان مزمومتان.

أبقاهُ ربّي لنا غصنا يظللنا

وحقّق الله ما أرجوهُ في بالي

وعادت حيزية إلى بيتها ..حزينة منكسرة ..وكان فارسها غائبا عن الوعي فلم تظفر منه بنظرة..ولا كلمة تطمئنها ..

حين أرخى الليل على الحي سدوله ، كانت حيزية في خبائها تتأمّل الشمعة المتراقصة أمامها في حزن وضيق..كان لسانها يلهج بالذكر والدعاء .. وراودها ما يراود المحبين في هذا المقام من الأفكار:

لو قدّر اللهُ سوءً سوف أنتحرُ

ما العيشُ بعد حبيب الروح ؟ما العمُرُ؟

هذا حيايَ..شهيقي..أضلعي..رئتي

وبؤبؤ العين، نور العين ،والبصرُ

لمن أعيشُ أنا من بعده؟ ولمنْ

أجيء أشرح أخطائي وأعتذرُ ؟

ومن سيخبرني قلبي به قلقا
في الليل ، تُحرقه الأفكارُ والسهرُ ؟

منْ سأرقبُ بالأيامِ عودتهُ
ومن سأبقى - إذا ما غاب- أنتظرُ ؟
ومَن إذا شاع عنه أنه مثلا
(أحبّ (حدّةَ)..) ..قلبي منه ينفطرُ ؟
تبًا لحدّةَ ، كادت أن تهبّلني
وكنتُ إن ذُكرتْ ..أغلي وأستعرُ

وانتبهت حيزية لنفسها ، وهي تبتسم في خجل من نفسها ، متذكّرة إشاعة (حدة) ..غير أنها ما لبثت أن طردت تلك البسمة عن شفتيها حين عادت إلى خيالها صورة سعيّد ممددا يئن..وعلى كتفه جورية حمراء على بياض ثلج ..

بالله يا صقرُ.. بالرحمنِ أرقيكا

ومن سوى الله .. من قل لي سيشفيكا ؟

بـ (الحمد لله) ..و(الكرسيّ) ، طاهرةً

أنا أعيذكَ مما فيكَ يؤذيكا

إن كان عينا ، فسوف الله يذهبه

أو كان سحرا لدى سحّارةٍ حيكا

ولي شعور ، بأنّ الله جل، علا

سيبدل الآه بالبسمات في فيكا

وكان نورٌ هادئ ، شفاف وجميل.. يصعد إلى السماء من ثغر الصبية .. في تلك الليلة المفتوحة على كل الاحتمالات..وغلبتها سنة من النوم فنامت..بينما القمر يعبر فوق خيمتها في ذلك الوقت مشرقا لولا بعض الظلال المظلمة عليه.. تماما كما هو قلبها الصغير الخائف..

obeikandl.com

الحلقة الرابعة عشرة

مرّ الليل طويلا قاسيا، ثقيلا على القلب..وفي صلاة الصبح دعت حيزية ربها بأن يشفي سعيّد.. ثم انتظرت بزوغ الشمس على أحرّ من الجمر.. وحين خرج القرص الذهبيّ الأصفر في الأفق كزهرة لنبتة (عشّاق الشمس)،تحركت حيزية وأمها نحو بيت سعيّد لعيادته..

حينما وصلتا .. خلت أمّ حيزية بأمّ سعيّد خارج الخيمة،بينما دلفت حيزية إلى الداخل، حيث رأت سعيّد ممدا في مكانه .. وقد اتسعت عيناها من الدهشة ، حين رأته فاتحا عينيه ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة .. ولم تتمالك نفسها ،فقالت:

(سلامة الرأس)([12]).. يا ابن العمّ، يا الغالي

يا من يعيش كبال البال في بالي

يا مَن يمزّق قلبي حين يخدشهُ

غصنٌ ...وأشعرُ أوجاعا بأوصالي

وحالك الآن - واحمدْ ربّنا- حسنٌ

وأفضلُ الآن رغم الجرحِ من حالي

أنا المريضة فعلا .. داخلي ألمٌ

منَ السنينِ وقيلِ الناس والقالِ

فردّ لي إن سمحتَ الآن ، معذرةً

وقد تحسّنتَ جدّا.. ردّ لي (شالي)

أنزلْ عيونك عنّي .. قد أكلتَ يدي

أساوري ، كحل أشفاري ،وخلخالي

[12] - (سلامة الرأس) مثل (سلاما) و(سلامٌ) يجوز فيها الرفع والنصب في (سلامة) ابتداء، أو تقديرا مثل قولهم (نرجو لك سلامة الرأس).

obeikandl.com

دعني أعود([13]) لبيتي، عاجلا، فأنا

لديّ يا زائغ العينين أعمالي

وقد أحسّ سعيّد ببرد السلامة يجري في أوصاله ، وما شقّ عليه سوى إزماعها الرحيل ..فقال يستبقيها:

اِبقيْ قليلا ..بقدر النار والشوقِ

بقدرِ دفلى سنين البعدِ في حلقي

بقدر لهفة عينينا إذا انكسرتْ

من الحياءِ..وكتْم الصهدِ والعشقِ

بقدر ما فيّ أو ما فيك من سُحُبٍ

ومن رعودٍ بلا غيثٍ ومن برقِ

[13] - (أعود) ليس من جواب الطلب هنا(دعني)، لذلك نأيتُ به عن الجزم ،والمعنى عندي المعنى (دعني قائلا) ،وآنذاك فواجبه الرفع لا الجزم ..كقوله تعالى : (ذرهم في خوضهم يلعبون) ، وقوله : (خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها) .

وجودكِ الحلوُ .. يشفيني ويمرضني
كالموت يجمع بين الحزنِ والحقّ
تريدُ بُرئي وتقسو حين تتركني
جميلةُ البؤبؤِ الملعونِ ، والرمْقِ
أنا جريحٌ.. ألا تدرين آنستي ؟
والجرح يُشفى - كما تدرينَ- بالرفق ؟
فابقي قليلا ..فهذا العطرُ ينعشني
ونغمة الرنّ في الأقراطِ والطوقِ
وإن ذهبتِ...وذاك الأمر يتعبني
فلا تطيلي..فنأيُ المشتهى يُشقي

ولم يقطع على حيزية ما كانت تسمعه من ابن عمها من جميل الكلام، غير دخول والده ، والمرأتين..وبعد ساعة وقد همّت حيزية وأمها بالعودة إلى بيتهما ، قال والد سعيّد مترددا تخونه العبارة فيميل إلى الإشارة ،كما هي عادة البدو المحافظين في التلميح بدل التصريح ...:

يومَ الخميسِ .. سنأتيكمْ ..ولا نعدُ
فإن شغلنا فإنّ الموعدَ الأحدُ
فبخّروا البيتَ ..دقوا دفّكم.. ودعوا
صوت الزغاريد في الأرجاء يرتعدُ
وأنتمو عندكم بنتٌ ..وتعجبنا
ونحنُ – يا ربّ سهّلها- لنا ولدُ

لم تصدّق حيزية وأمها ما سمعتاه من والد سعيّد..وفي طريق العودة كان قلب الصبية يطير محلقا يسبقها إلى البيت .. بينما كانت رجلاها تتعثران ارتباكا.. فهاهي بعد سنوات انتظار تسمع من عمها أروع كلمة تنتعش لها قلوب العذارى وتطير لها أفئدتهن..
ولم تكن حيزية تعرف ما طرأ عند عمها ووالدها ، بعد سنوات لم يكونا يتفقان فيها على هذا الأمر..وقد بلغت الآن سنتها العشرين ، وقليلات من فتيات

البوادي من يبلغن هذا السن دون زواج .. ولعلّ رفضها للخطّاب لسنوات هو ما أقنع والدها بأنّ ابنته مصرة على ألا تتزوّج غير ابن عمّها.. ورغم كل الأفكار التي كانت تأكل بعضها في رأسها..إلا أنها كانت سعيدة بالقدر الذي يجعلها فراشة ربيع..

وكان الربيع في شهره الثاني..جميلا كربيع في شهره الثاني..

openkandl.com

الحلقة الخامسة عشرة

في تلك الليلة وقد وعد عمّ حيزية بما وعد، لم تستطع الصبية أن تنام من شدة فرحها .. ولم يكن ذلك قليلا ..فهو حلمها الأكبر وعليه تتوقف سعادتها وإزهار عمرها .. ورغم ذلك فقد أصبحت نشيطة الفؤاد جذلى ..

وسرى الخبر في الحيّ..وقام والد حيزية منذ الصباح بنصب خيمتين واسعتين ، استعدادا للعرس ، إحداهما للرجال والأخرى للنساء.. واجتمعت لدى حيزية منذ الصباح صويحباتها،يشاركنها فرحتها ويساعدنها في إعداد ما يجب إعداده ..

وفي غمرة ضحكاتهن وهمساتهن ووشوشاتهن المحببة ،سألنها كيف شعرت حين فاجأها عمها بالخبر، فقالت:

شعرتُ بالأرض دارتْ بي ..وبي فزعُ
من قول عمي .. وبوبو العين يتّسعُ

ودُختُ .. ملِتُ إلى أمي لتسندني
وكدتُ لولا وقوفي قربَها أقعُ
وقلتُ في السرّ: هل فعلا سيخطبني ؟
وبعد كل سنين البعد نجتمعُ ؟
أفي المنام أنا؟ ..أخبرنني ..فأنا
أحاول الأمرَ ..لكنْ لست أقتنعُ
وبي من الأمس رجْفاتٌ أحسّ بها
والصدر ينزل من خوفي ويرتفعُ
وصرتُ أنسى ، وقلبي ليس في جسدي
أظنّ أيني وضعتُ (الشيْ)[14]..ولا أضعُ

وقالت إحدى المشاكسات وهي تقلّد حيزية في حركاتها وقولها:

[14] - الشيء

أنا سأقبلُ أن أنسى ،وأقتنعُ
بوهمِ وضعي لأشياء..ولا أضعُ
وسوف أقبل أن أرتجّ راجفةً
وأنّ عينيّ كالأبقارِ تتسعُ
وأن أدوخ، وأن أمشي على إبرٍ
وكلّ شيء على رأسي أنا يقعُ
وأن تصير عيونٍ فوق حاجبها
وأن تصيرَ (سبوتا) ([15]) عنديَ الجمعُ
عندي المهم ، بأن يأتي ليخطبني
تهون عندي همومي حين نجتمعُ

وقهقهت الفتيات ، بينما كان سعيّد في خيمته يحدّث صديقه (رابح) الذي كان يسأله عن جرحه.. :

[15] - سبوت: جمع سبت..

شفيتُ حينَ سمعتُ العقد في الرقبهْ
يثير كالطفلِ في هزاتهِ جلبهْ
وحين أبصرتُ في العينين دمعتها
خوفا عليّ على الخدينِ منسكبهْ
وحين قالت كُليماتٍ ..تهنئني
همسا ك(دقلةِ نورٍ) ([16]).. جدَّ مقتضبهْ
وحين أطلقتُ كالكلبين- آكلُها-
عينيَّ ،وهي تغض الطرف مضطربهْ
وحين قال أنيه ما قال ، وابتسمتْ
وحين كادتْ تضيع المشيَ منسحبهْ

وكانت زغاريد في بيت سعيد وبيت حيزية ، تعلنان بداية موسم الفرح القادم..

[16] - الدقل في اللغة هو الرديء من التمر .. بينما (دقلة نور) في الجزائر هي أفضل أنواع التمور وأجودها وأغلاها سعرا، وهي التي تشفّ عن نواتها

الحلقة السادسة عشرة

جاء يوم الخميس المنتظر.. ربيعيا ، لطيف الغيم،ربابيًّهُ([17]).. وكانت حيزية قد تجمّلت ولبست حليّها فبدتْ حوريةً تضيع فيها العيون دهشة واستحسانا.. كان القلب المرتقب ينبض بنغمة أخرى جديدة لم تألفها .. وفكّرت كيف يكون حال اللواتي يأتيهنّ مثل هذا اليوم من النساء،وهن يُخطبنَ لغير من أحببن إكراها ؟ وقد أردكت أنّ هذا اليوم ، إنما هو باب لعمر من الفرح ، أو لعمر من الشقاء.. والكتب عناوين ..والخطبة عنوان الزواج .. والله على كل شيء قدير..

حينما ارتفعت الشمس في صدر السماء مقدار رمح.. باهتة باردة تلتحف غلالة السحاب الفاتنة،كانت والدة سعيّد قد حلّت ببيت حيزية ..وخرجت النسوة

[17] - الرباب: هو السحاب الأبيض الرقيق الذي يشفّ

لاستقبالها استقبالا يليق بأمّ العريس .. أما حيزية فقد منعها خجلها من الظهور أمامها، لذلك حرصت على التواري في خيمة مستقلة ، برفقة بعض صاحباتها..

صبّوا لنا الشاي لا حلوا ولا مرّا
كقطرة الدمع([18]) ، بالنعناع مخضرّا
ما ضرّ لو غنّت النسوانُ ، أو رقصتْ
صبيةٌ مثل بدر النصف ..ما ضرّا
وأقبلت نحونا تختالُ آنسةٌ
توزّع النور، مثل البدر إن مرّا
فالكفّ تبدو كلحنٍ في خواتمها
والرسغُ يدهش بالحناء محمرّا
والثغر كالكرزِ الشاميّ ، محتقنٌ
يغوي ببسمته الشيطانَ، مفترّا

1- [18] - وصف يطلقه البعض على الشاي حين يكون صافيا،فيقول (كالدمعة).

وفي الخطى نغمٌ حلوٌ يلحّنها

والليل يحسدُ في ظلمائه الشَّعرا

ومِحزم الخصرِ،فضيٌّ يحاصرها

ويضمر السوءَ ، لا يبديه،والشرّا

تحس لمستهُ فيها وتفهمها

وتشعر البنتُ إذ يلهو بها عصرا ([19])

إبزيمهُ فيه نقشٌ مذهلٌ ، وبهِ

ما لو رآهُ حزينٌ بائسٌ سُرّا

صبوا لنا الشاي..نادوها .. لتحضرهُ

وكي تطوف به..فضلا..ولا أمرا

حين دخلت حيزية ..تعلّقت بها الأعين تمسحها من أعلاها إلى أسفلها ..وتنهدت النساء ، وقلن (حاشا لله ما هذه إنسية)..ووجدتها أمّ سعيّد مناسبة للفخر الذي هو

[19] - من عصَر يعصر عصرا ، أي ضغط ..وليس من العصر الذي هو الوقت.

عادة النساء في مثل هذه المواقف .. وقد طلبت من النسوان أن يقلن : (ما شاء الله) خوفا على تلك الغزالة الساحرة من الحسد والعين، قبل أن تقول وعيناها تتأملان زوجة ابنها وحبيبته :

يا ربّ سترکَ.. واحفظْ باقة الحبقِ
بـ (قل أعوذُ بربّ الناس) ..و(الفلقِ)
عيني عليكِ بإذن الله باردة
كنار (إبرا...) (خليل اللهِ)..في الحَرَقِ [20]
سبحان من خلق العينينِ جائعةً
كالسيف في اللحمِ، أو كالنار في الورقِ
فهل نقطّع أيدينا بدهشتنا
إذا نظرنا إلى شمس ، ولم نطقِ؟
وما تركتِ لنا عقلا بأرؤسنا
وما تركت لنا يا بنتُ من رمقِ؟

[20] - (إبرا...) يعني إبراهيم.

قلبي على ولدي ..قلبي على ولدي
إن غاب عن وعيه شهرين ، لم يفقِ

لا تفجئيه ، رجاء، قد يموت إذا
رآكِ رؤيةَ شمس الظهرِ في الغسقِ

تسمّرت حيزية في مكانها عند مدخل الخيمة ، لِما رأته وسمعته من ذهول النساء ودهشتهن بجمالها.. وقد احمرّ خدّاها وكادت دموع الفرح أن تنط من عينيها كأرانب بريةٍ جميلةٍ .. ولم تستفق من كل ذلك إلا على كلام أم سعيّد وهي تقول لها برفق وتدليل:

تقدّمي كي أبوسَ الخدّ والرأسا
وأزرعَ الوجهَ يا ورد الندى بَوْسا
من أين جئت ؟ من الفردوس غاليتي؟
لا تنكري.. نحنُ إنسٌ نعرف الإنسا

لكِ السلامةُ ما حنّيتِ كفّ يدٍ

وصبّح الحسنُ حورَ العين أو مسّى

وهزت الزغاريد الخيمة ، بينما خطت الحورية بدلال، تجرّ أذيال العز نحو زوجة عمّها..

obeikandl.com

الحلقة السابعة عشرة

كانت حيزية شاغلة الناس في حيها لسنوات .. حلم الخاطبين وحديث الصبايا في مجالس نميمتهن .. واليوم يتصدّر خبر خطبتها أخبار حيها (سيدي خالد) وغيره من الأحياء المجاورة..

طلع صباح اليوم الموالي على الحيّ.. وانتشرت القطعان في مراعيها في المدى الممتد.. وتحرك رجال الحي ونساؤه في أعمالهم وحاجاتهم ..

أما حيزية فقد أخذت جرّتها وقصدت النبع مع إحدى صديقاتها ..وما كان أمر النبع يعنيها ..إنما هو مكر النساء ودلالهن .. وشهوة سمعها في التقاط صدى خبر خطبتها في النساء ، وشهوة عينيها في رؤية ما يختلج وجوه الصبايا،بين سعيدة منبسطة الأسارير، وحاسدة متجهمة..

على النبع كثرت الوشوشات والهمسات والغمزات إذ وصلت حيزية ..وبين مسرعة إليها تهنئها ، وبين مترددة ممتنعة يحبسها حابس، كانت حيزية بدر النجوم،وواسطة العقد،وأميرة البنات..

ولعلها بعد أن ملأت جرتها ماء، وقلبها انتشاء ، قررت العودة إلى البيت .. وفي الطريق رأت سعيّد .. ولعله دبّر ذلك ولم يكن صدفة..ولعله أراد أن يقول شيئا .. فأبطأ المشي، ليقول:

فليسلمِ الحاجبُ المعقودُ ..والغضبُ
وليسلمِ القدّ والرنّات والذهبُ
ووردة حلوة تخطو على وترٍ
مثل السفينة في الأمواج تضطربُ
قفوا قليلا إذا شئتم لنخبركمْ
بما نحسّ بلا شرحٍ ..ونقتضبُ
وإن أبيتم ..لنا يوم سيجمعنا
وسوف تعرفُ ثأر النار يا حطبُ

أغمضت حيزية عينيها ، ولوت رقبتها في دلال مشيحة عن سعيّد ، غارسة أنفها في السحاب..كطفلة لم تتجاوز السادسة من عمرها .. وتجاوزته ..ولم يسمع منها عابرةً سوى كلمات:

ماذا تريدُ ؟ رجاء لا تقل وردهْ
دعني لشأني .. أنا بالفعل محتدّهْ
أبي يغارُ.. وخطواتي مراقبةٌ
لا أستطيعُ.. عليّ العين من مدهْ
وقد خُطبتُ لشخص سوف يذبحني
إذا التفتُّ ..فكلّمْ يا أخي (حَدّهْ)

في الخيمة كانت حيزية نشيطة كنحلة، مرحة كفراشة، شذية كوردة..جميلة كحيزية..وكانت صديقتها تلومها على ما فعلته بسعيّد منذ ساعة وتصفها

بالمجنونة ..ولأنّ حيزية تعرف جيّدا أنّ الحبّ جنون وأنّ الدلال يحرق قلب المحبّ ، فقد أجابت صديقتها كأنما تعطيها درسا في ذلك ، قالت:

مَن لم يُقل عنهُ بين الناس قد جُنّا
ولا تمزّق في ليل ولا غنّى
ولا تمايل كالسكرانِ مضطربا
بصوتِ خلخال من يهواه إن رنّا
ولا قضى الليل في عدّ النجوم ولا
جثا على ركبتيهِ إن رأى الحنّا
ولا تباطأ في وصلٍ لعاشقهِ
ولا نوى نكث عهد الوصل إن مَنّى
وليس يفهم في العينين رفّتها
وليس يفهم معنى السمع إن طنّا
فلا يقال لهُ يهوى ، وحجتهُ
ضعيفةٌ ، ثمّ ليس الأمر ما ظنّا

obeikandl.com

دعي حبيبي ..أنا أدرى بهِ ، ولهِ
عندي أمور تذيبُ الإنس والجنّا
وسوف يعرف كيف النار تأكلهُ
وسوف يعرف ما النسوان من هنّ

وابتسمت الصبيتان في مكر ..وواصلتا عملها في نفض الوسادات والمفارش ..استعدادا للعرس..

oberkandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثامنة عشرة

مرت الأيام سريعة ، كقافلة آخذ بعضها بخطام بعض،بين كرّ الجديدين في شروق وغروب،وبياض وسواد .. وجاءت أيام العرس صاخبة سعيدة ناضحة بالحياة ..والعرس في هذه البوادي أيام لا يوم ، وليالٍ لا ليلة.. وأفراح لا فرح..

وحلّ الضيوف من الأحياء المجاورة ، ونحرت الإبل وذبحت الأغنام،وهزّ البارود الأرجاء، ولعبت أصايل الخيل، وغنّت النساء ورقصت الصبايا ، وتكلّمت الدفوف فأسمعت.. وفي براح أمام خيمة كبيرة مخصصة للرجال ،والوقت ما بعد العصر ، وما بعد العصر في البادية لحظات فتنة،حيث تبرد الشمس ، ويبهت لونها ، وتهبّ نسائم الشمال تنعش الأرواح.. أمام هذه الخيمة اجتمعَ أناس،يستمتعون بالحديث والشاي والقهوة ومتابعة

ألعاب الفروسيّة ورقصات الخيل .. ووقف من بين الحاضرين شاعر مسنّ ، يقول لسعيّد مهنئا:

ظفِرتَ بالذّهب الأصليّ، بالدُّرَرِ
بالحسن ، بالقدّ مثل البانِ ، بالحَوَرِ
وفزتَ بالمهرة السمراء راضيةً
يا فارس الحيّ، دون البدو والحضرِ
صبَرتَ، نلتَ، وعشتَ العمر تطلبها
وكم مشيتَ لعينيها على الإبرِ
وأنت أهلٌ لعينيها إذا اكتحلتْ
وللضفائر إن فُكّتْ على خَفَرِ
وللخواتم والحناء في يدها
وللعطور تذيب القلب في الحجرِ

obeikandl.com

ولتهنكَ([21]) البنتُ..ولتسعد بصحبتها

مباركٌ لكَ يا محظوظُ بالظَّفَرِ

أخذتَ أحلى نساء الحيّ قاطبةً

وأجملَ الغيدِ تحت الشَّعر والوبرِ

وأنت أفضلُ مَن هزّته مُسرَجةٌ

وكم يليق زواجُ الشمس بالقمرِ

فامسح على الشارب المفتول ، في شرَفٍ

وأبرزِ الصدرَ بين الناسِ وافتخرِ

---

[21] - ليهنك : ليهنئك ..أي لتهنأ بذلك .. وهو من كلام العرب.. وفي الحديث : عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ قَالَ قُلْتُ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: (وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) رواه مسلم

في خيمة النسوان ، كان الصخب أشدّ ..وما تدّخره النساء من كبت زمن الصمت ، يفجّرنه في مواسم الثورة والكلام .. وقد صوّت الدفّ في يد صبية ، بينما توسّطت الجمع أخرى ، ظاهرةَ الجمال ، تهتزّ حافية في رقصة ، يضبطها إيقاع غناء النساء..

ولعلّ إحدى كبيرات السنّ من النساء قد أرادت أن تزيد الإيقاع انضباطا والحماس اشتعالا،فأومأت إلى النسوة بالصمت ورفعت صوتها بلحن بديع ، توجّه به ضاربة الدف والراقصة .. تقول :

هزّيه أكثر ، هزّي يا ابنتي الدفّا
وخفّفي فوقهُ - من فضلكِ- الكفّا
ومسّحيهِ لكي يحمى،بكفّ يدٍ
ورجّفي الرسغَ في تمييلهِ رجفا
وأغضبيه، استفزّيه..دعيه يرى
كيد النساءَ فقد من دائهِ يُشفى

دقُّ الهلاليةِ الحسناءِ في فرحٍ
من بين ألف من النسوان لا يخفى

ثمّ التفتت إلى صبية كغصن البان ، راقصة بين النساء،وقالت توجّهها:

ويا التي بيننا تختال حافيةً
خفّي، فأفضل رقص البنت ما خفّا
وما ترجرج فيه القدُّ منكسرا
وما تمايلَ كالصفصافِ والتفّا
والرقص في فقهنا السنيّ لا حرجٌ
به، وليس بهِ بأس لنا عُرفا
لكنَّ جدّة هذا الحيّ من زمنٍ
كانت تقول عليها الرحمة الأوفى:
(إذا شددتن حول الخصر مِحزمة
فامنعن بالحركاتِ الأعينَ الطرفا)

obeikandl.com

في تلك الأثناء دخلت حيزية ، فازداد الحماس ،وتحولت العيون إليها ، ثم تهامست فيما بينها، وللنساء بعيونهن حركات ونميمات وكلام وكلام .. وقالت العجوز تصف حيزية:

(ويلُمّها)([22]) .. إنّ كيل الحسن قد طفَحا

إذ لاحَ بدر تمام النصف واتّضحا

22 - ويلمّها : بسكون الياء وضم اللام وكسر الميم المشددة ، قيل إن أصله (ويل لأمها)،وقيل (ويْ لأمها) .. والعرب تستعمل الذمّ في المدح ، كقولهم في من يثير الإعجاب : تبا له ،وغيره كثير.. ومنه قول الشاعرةُ الجاهليةُ سعدى بنتُ الشمردلِ الجُهنيةُ كما في الأصمعيات:

وَيلُمِّهِ رَجُلاً يُليذُ بِظَهرِهِ / إبِلاً وَنَسّالُ القَيافي أَروَعُ

وللغويين في إعرابه ثلاثة أوجه ليس هذا مجال بسطها ..

جمال عينينِ، مثل العطرِ منتشرٌ

مهما تُحاول في إخفائهِ افتضحا

فمن متى أصبحتْ للظبي أسلحةٌ

وقبّل الماءُ رأس النار واصطلحا ؟

لو أنّ إبليسَ لم يظفر بفاتنةٍ

تجنّن الناس،والعبّاد والصّلحا

وثُمّ قابلَ هذي فجأة ، لبكى

وباس كفّيه ظَهرا،باطنا،فرحا

وما رأيتُ بعمري مثل نظرتها

ولا كطلقة مؤقيها إذا قدحا

وقد يموت رقيقٌ لو تفاجئهُ

بلا نقابٍ ،معاذ الله ، لا سمحا

وخطفت مغنية جميلة الصوت بيتين مما قالت العجوز،ورفعت بهما صوتها ملحّنين ، يقتلان رقة وعذوبة:

وما رأيتُ بعمري مثل نظرتها
ولا كطلقة مؤقيها إذا قدحا
وقد يموت رقيقٌ لو تفاجئهُ
بلا نقابٍ ،معاذ الله ، لا سمحا.

oberkandl.com

الحلقة التاسعة عشرة

لثلاثة أيام .. لم يهدأ حيّ (سيدي خالد) ..ولم يكن زواج سعيّد من حيزية عرسا واحدا، بل كان أعراسا على ما هو شائع في مثل هذه الزيجات في الصحراء والبادية.. وقد مسح هذا الفرح الكثير من الأحزان في قلوب أهل الحيّ،فانتعشت أنفسهم ، وأزهرت أضلاعهم،وتفتّحت ورود الابتسام في شفاههم..

أما سعيّد وحيزية ، فكأنما كانا في حلم جميل .. وكان يحدث أن يفتح سعيد عينيه صباحا،ليكتشف وجود حيزية في بيته ، وهو ما لم يألفه بعد ، فيطير فرحا،ويراقبها رائحة أو غادية في نشاطها مع والدته .. وفي قلبه لها من الود والحنان ورقيق العواطف ، ما لو وزّع على بوادي العرب جميعها،لوسعها..

وفي رابع ليلة ، وقد أسدل الليل ستائره السوداء الحالكة المرصعة بالنجوم والمطرزة بالقمر والضوء ،على الحيّ،كان

سعيّد يتأمّل حيزية بامتنان لله الذي جمعهما ..وبامتنان أكبر لأن جعلها بهذا الجمال ..كانت حيزية جالسة قبالة سعيّد،تمشّط شعرها وتكحّل عينيها على ضوء شمعة.. بينما راح هو يتمتم :

تخونني كلماتي الآنَ ..ما العملُ
إذا عجزتُ ولم تسعفنيَ الجُملُ ؟
أحسّ أنّ لساني الآن مرتبكٌ
جدا، يدبّ به من رهبتي الشللُ
فكيف كان أناس الحبّ من زمنٍ
يعبّرونَ إذا خانتهمُ الحيَلُ ؟
وكيف يفعلُ مَن كانت حبيبتهُ
فيها نساء جميع الأرض تُختزلُ ؟
من أين تأتيه ألفاظ ليشرحها
وكيف يصمد في أوصافها الغزلُ؟
أنا ضعيفٌ أمام الحسن..من صِغري
صبري قليلٌ وقلبي ليس يحتملُ

وأنت يا فتنتي الكبرى ، مراهقةٌ

تمشّط الشعرَ قدّامي ..وتكتحلُ

وبين كفّينِ حكّت عطرها..مسحتْ

جيدا عليه سواقي الشَّعر تنسدلُ

وحرّرتْ معصميها من أساورها

وقد تدلّت على أقراطها الخُصَلُ

فكيف أشرح في النيران عاطفتي

وكيف يشرح من في النار يشتعلُ ؟

ولا يليقُ ببنت العمّ مُذهلتي

سوى سكوتي..وإني سوفَ أمتثلُ

وللعيون كلامٌ..فاقرئي مُقلي

فأفصح القائلين، الصمتُ،والمقلُ

كان سعيّد مجنونا في هواه ..ولم تكن حيزية أقلّ منه في ذلك...لذلك طارت فرحا حين اقترح عليها أن يهرّبها من خيمتهما في تلك الساعة ، ليسهرا مع النجوم

والقمر وجمال الصحراء .. وفعلاها..وما هي إلا لحظات حتّى أسرج جواده ، وطارا عليه بعيدا في قلب الصحراء.. وغنّت الرمال هامسة تصفهما بصوت هادئ كامرأة تدأدئ صغيرها لينام:

طارا ليبتعدا عن أعين الرقبا
لم يخبرا أحدا في الليل إذ هربا
طارا ..وكانت نجوم الليل ساهرةً
تراقبُ الغزل الليليَّ واللعِبا
وللنجوم فضولٌ، ليس يفهمه
سوى من اختار ترك الدار، واغتربا
ومن أحبّ كثيرا ، أو تورّط في
حبّ كبيرٍ ،ومن في العشق قد تعبا
ومن تربّع كالتلميذ ، مجتهدا
يمحو ويحفظ في الألواحِ ما كَتَبا
ومن روى عنعنات العشق مسندةً
وخالط العلم والأشياخ والنجَبا

ومن إذا مسه قولٌ وجرّحهُ

مدّ المناديل للعينين واحتسبا

وليس في الفُرس إحساس، لذا فأنا

لا أقصد الفرس ، لكن أقصد العربا

وللنجوم فضولٌ ليس يفهمه

سوى الذي يحفظ الأشعار والأدبا

طارا ، وبدرٌ كقرص الخبز مكتملٌ

يطلّ مثل صبيّ، أينما ذهبا

نزع سعيّد عباءته ..وللحبيبات تفرشُ القلوب لا العباءات .. وكان يختلس إلى وجهها الجميل النظر، وما كان يدري أوجهها يعكس ضوء القمر، أم أن ضوء القمر من انعكاس ضوء وجهها عليه .. ولعلها للمرة الأولى تنطق بما كتمته لسنوات:

مدّ العباءة ..شدّت ثوبها.. جلسا

وصعّد العين نحو البنت مختلسا

تأمّلا البدر ..كانت شبهَ واجمةٍ

وكان يرقب فيها البدر منعكسا

وقال: (قولي .. فلا آذان تسمعنا

وقد تركنا عيون الناس، والعسسا)

قالت : (أحبكَ حبًا لا مثيل لهُ

بين الشعوبِ ، شعوب الأرض،والرؤسا)

فمال للأرض ، كالمغشي، يوهمها

فتمتمت تقرأ (الكرسيّ) أو (عبسا)

مضى الليل سريعا .. وحين زحف الفجر الكاذب على الأفق الشرقي ، وتنفست الصحراء أنفاس آخر الليل .. طار جواد أدهم بحبيبين إلى عشهما .. وفي قلبيهما بقايا ليلة من ليالي الأساطير..

الحلقة العشرون

لأنّ الحب جنون ..ولأنّ الجنون فنون ..فقد طلبت حيزية من سعيّد أن يصطحبها إلى عمق الصحراء بعيدا عن الحيّ ، إلى مكان معروف بوجود الغزلان ، يقصده الصيادون عادة.. كان المساء بحجم فرحتها حين وصلا إلى المكان ..وليس هناك غير جمال بساط الرمل الممتد.. أما الشمس فقد هدأت آهاتها الحارة ، ومالت إلى المهادنة واللطف.. بينما النسائم الشمالية تهب على الزوجين بين حين وحين..

كانت حيزية تشير بأصبعها إلى ما تظنه غزالة أو قطيعَ غزلان في البعيد ..منتشية بأن تزور لأول مرة هذا المكان الذي كم نُسجت حوله أساطير الصيادين والظباء.. ولعلّ سعيّد أراد أن يثير غيرتها ،هو الذي على مذهب قيس ليلى الذي كان يرى ليلاه في جمال غزالة في الصحراء، فقال:

قلبي بكل ذوات الكحل ولهانُ
والحسن شتّى.. وشكل الحسن ألوانُ
عينا الغزالةِ ، رمشاها ، ونظرتها
كأنها أنتِ..والظبيات نسوانُ
وصيدها ، مثل صيد الغيد، سيّدتي
لذا يقال عن الحلواتِ غزلانُ
لا فرق في روعة العينين بينكما
هاتان ، هاتان، طوفانان ، نيرانُ
وجيد بنت كجيد الظبي ، فرقهما
أن ليس في عنقِ الظبياتِ خيطانُ
ورمْش ظبي كرمش البنت مكتحلا
كلاهما ، ساحر الرمقات فتّانُ
وكلّكنّ لدى إبليس أسلحةٌ
وكلكنّ مكيدات وبهتانُ

وقد رأيتُ بحبي ما يشيب به
عشاقُ (عذرةَ) ([23])، لو في عصرنا كانوا
ولا ألامُ، فقلبي ليس ملك يدي
وفي الأخير أنا في الضعف إنسانُ

ولعلّ الغيرة التي دبّت في قلب حيزية في تلك الساعة،قد دفعتها إلى أن تقترح على سعيّد فكرة تشبهها جنونا ..وهو أن تمثّل دور غزالة ليصيدها ..وابتسم سعيّد للفكرة مستغربا،وظنها تمزح ، لكنه سرعان ما أدرك جدّها وإصرارها .. مثل طفلة تحنّ إلى زمن اللعب.. وقالت:

صِديني .. فأفضل أهل العشقِ من صادا
وشُقَّ قلبي بما قوسُ([24]) الردى جادا

[23] - عذرة : قبيلة بني عذرة التي ينسب إليها الحبّ العذري.

[24] - القوس تؤنث وتذكّر.. وفي (الصحاح في اللغة) :القَوْسُ يذكَّر ويؤنَّث. فمن أنّث قال في تصغيرها قُوَيْسَةٌ، ومن ذكر،قال قُوَيْسٌ.وفي لسان العرب: (القَوْس معروفة عجمية وعربية الجوهري القَوْس يذكَّر ويؤنَّث)

ولا أحبكَ إن لم ترمني فرَقا
أو مرّ سهمٌ بعيدا ..أو إذا حادا
أنا سأجري كرئم في الرمال جرىٰ
وأنت سدّدْ .. وكن في الرمي صيّادا
إذا وقعتُ، فجئني نصف مضطربٍ
واقرأ عليّ من القرآنِ أورادا
فسوف تشعر أني لست غاضبةً
ولستُ ممن أسرّ الحقدَ أو عادىٰ
وقيل يعشقُ ظبيُ الرمل صائدَهُ
وقد يعيش لهُ كالعبدِ منقادا
وقيل أيضا يحبّ الظبيَ صائدُهُ
ويستجيب لهُ في القبر إن نادىٰ

وجرت الصبية الجميلة ، مكحّلة العينين فوق الرمل متعثرة بهِ وبثوبها البدويّ الأسود المطرّز.. تماما كما

تفعل ظبية مذعورة.. وقد سايرها سعيد في مطلبها يرضيها ، فحمل بيده بندقيته ، كأنه يرميها بها .. وتماهت هي مع الدور فسقطت في البعيد ...
جرى إليها ، نصفه لعب والنصف جدّ.. ورفع رأسها يتأمّل وجهها ، معتذرا ، هو الذي لا يستطيع رميها بسهم من ورد الندى.. فكيف بسهم حقيقي، وقال:

يا ظبية القلب .. يا من صِدتُها غدرا
عذرا فإني حزينٌ نادمٌ .. عذرا
سوادَ عيني .. نواةَ القلب ، نبضتَهُ
وما من الدمِ في شريانهِ مرّا
ألست تدرين أنّ السهمَ إن رُميتْ
تعني الفراق..وتعني الجرحَ.. والشرّا ؟
ولستُ أرمي سهاما من ورود ندى
إليك أنت.. ولو قد كنتُ مضطرا

بأيّ كفٍّ أشدّ القوس ، أيّ يدٍ ؟
وكيف تمسك فيها سهمها الأخرى ؟
وأيّ قلبٍ بأضلاعي يطاوعني
لأعصرَ المرّ من كفيَّ للسَّمرا
إن كان لا بدّ من مصّ لحنظلةٍ
فأنت لا لا.. أنا من يشربُ المرّا
والصيدُ في الشرح في الفصحى كما زعموا:
((شخصٌ يصبّ لِظبي نارَه الحَمْرا))
أموت قهرا إذا سهمٌ ولو لعِبا
أصابَ حبي أنا .. إن لم أمت قهرا
أخافُ من رؤية المحبوب ، لو لعبا
يشدّ كفيهِ فوق الجرح إذ خرّا

كانا يضحكان وهما يميلان على الرمل الذي تغوص فيه أرجلهما ، راجعين إلى الحصان ..وفجأة توقفا ..تأمّل عينيها

بصمت عميق يكاد ينطق.. وترقرقت دموع السرور في عينيهما..وقال هامسا:

سبحان مَن خلق النسوانَ سبحانا
ورصّعَ الكوكبَ الأرضيَّ نسوانا
إذا زعلنَ جرحن الورد داخلنا
وإن هجرنَ ملأن القلب أشجانا
وإن بكينَ قلبن الصيف فصل شتا
وإن رضينَ ملأنَ الصمت ألحانا
وإن ضحكنَ .. تدور الأرض ضاحكةً
وإنْ طلبنَ..فلا تأخيرَ..والآنا
سبحان مَن جعل المحبوب ظبيَ فلا ([25])
ومَن يحوّلُ غيدَ الحبّ غزلانا

[25] - الفلا: جمع فلاة ، وهي الأرض الواسعة المقفرة

وبعد لحظات ، كانت الدماء تحترق حارة مترقرقة في عروق حصان عربيّ أصيل يضبح .. بزوجين عاشقين عائدين إلى حيّهما ، من رحلة صيد غريبة..

obeikandl.com

الحلقة الحادية والعشرون

كان قد مضى على زواج سعيّد وحيزية عامان ، ودخل العام الثالث ..وقد بدأ حرّ الصيف يستعمر المكان ..ويفتكّ من الربيع .. وذلك يعني أنه لم يبق سوى أيام قليلة ليرحل الكثير من أهل الحيّ نحو الشمال ،طلبا للجو المعتدل ، ومراعي القطعان التي يخلفهاالحاصدون في التل..وكان ذلك دأب هؤلاء الذي لا يخطئونه أبدا..

وهذه هي الرحلة الصيفية السنوية الثالثة لسعيّد وحيزية متزوجين ..رغم أنهما قد ألفا هذا الارتحال الصيفي مع أهليهما منذ أن عقلا ..

وقد طارت حيزية فرحا ، حين كانت تريد دخول الخيمة،فاعترض طريقها سعيّد يتزحزح يمينا وشمالا،يسدّ عليها باب الخيمة .. قبل أن يخبرها أنهما سيرحلان نحو الشمال للاصطياف بعد يومين ..

ولعلها وجدتها مناسبة للدلال أو لاختبار حبه لها،فقالت:

اِرحل ودعني أبلّلْ بعدك الخدّا
وبالأصابعِ دعني أحترقْ عدّا
نسيتُ كيف يكون البعدُ يا ولهي
دعنا نجربْ جنون الشوقِ والبعدا
أنا أحبّك (جدّا) ، غِبْ لتجعلني
أهواكَ إن غبتَ عنّي ..(جيدا جدّا)
ماذا ستخسر إن جرّبتَ مقترحي
وإن وضعتَ لوصلي مرة حدّا ؟
وإن تعبنا وراسلناكَ في عجلٍ
نبكي ونخبر عمّا جوفنا انهدّا
فلا تحنّ ، ولا تقرأ رسالتنا
وإن قرأتَ فلا ترسلْ لنا ردّا
سيفعل الصيفُ في قلبينِ فعلتهُ
وفي الخريفِ سننهي الأمر، لا بدّا
وسوف نعرفُ ما قد جُنّ داخلنا
من الجنون ، وما في حبّنا جَدّا

ورغم أنّ سعيّد كان يعرف جيّدا أنّ هذا الطلب ليس سوى مما تمليه قلوب المحبين امتحانا لمن تحب، فقد آلم جدا أن يفكّر مجرّد تفكير في فراق حيزية، ابنة عمه التي ما عاد يطيق على البعد عنها صبرا .. وكثيرا ما كان يستعجله الشوق إليها فيترك بعض أشغاله ليعود ولو للحظة يراها فيها، ثم يعود إلى عمله.. لذلك لم يصدّق أنّ قلبها قد طاوعها لتطلب ذلك ولو على سبيل الامتحان لصبره، فقال مقرّا بعدم صبره على فراقها :

تدرين أني بقولِ الغيد لا أثقُ
ففي الأخير أنا مَن سوف يحترقُ
وللرجالِ طريقاتٌ لكي يقعوا
وللنساءِ إلى إيقاعهم طُرُقُ
فكيف أتركُ قلبي ..كيف أتركهُ
وراء ظهري ..- أجيبيني - وأنطلقُ ؟

وكيف أطفئُ - قُولِي يا مشاكستً -

ما في العشياتِ في جنبيّ يحترقُ ؟

إن بُستِ عينيكِ يا أحلى مكحّلتٍ

فربّما ..ربّما.. في الأمرِ نتفقُ

ولم أصادف بعمري من تقول لمن

تحبّ : (دعنا - لكي نشتاقَ- نفترقُ)

ولم أصدّق رواياتٍ مضعّفتً

عن الفراق ، ولا صدّقتُ من صدقوا

ولا تخيّلتُ ليلى رغم قسوتها

تقول ذلكَ.. لو قالتہ تختنقُ

والعاشق الحقُّ،من إن شُدَّ من يدهِ

عن الحبيب، برغم الشدّ يلتصقُ

في تلك الليلة كانت هناك خيام تستعدّ للارتحال..أسرة سعيّد ، وأهل حيزية، وبعض أقاربهم وبعض رعاتهم ..

كانت الحرارة شديدة .. وكان الليل صافيا هادئا ، رغم أنّ حيزية كانت تفكّر في هذه الرحلة التي تحسها محطة متميزة في حياتها ..ورغم أنها لم تكن تدرك سرّ هذا الإحساس،فقد كان قلبها يشعر برجفة وانقباض .. لكنّها سلّمت أمرها لله ، وما دامت مع سعيّد فإنها لن تأبه بشيء.. وكذلك يفعل الحبّ ..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثانية والعشرون

لا يزال غبش الفجر يرسم الليل والنهار متداخلين في وقت واحد.. هذا يوم الاثنين من أواخر شهر أيار- مايو من سنة 1878 م.. وقد أزف الرحيل ورُبطت الأحمال على العير،وسيقت القطعان ، وانتصبت على الجِمال هوادج النساء مزخرفة جميلة.. ودبت في الحيّ حركة.. وتلمّست حيزية قلبها تدلّكه قبل أن تركب هودجها..بينما كان سعيّد يتحرّك في نشاط يعدّ القافلة للانطلاق، وكان كلما التقت عيناه بعيني حيزية في ذهابه وجيئته ، ابتسم لها ابتسامة ودّ،يطمئنها ويزرع الأمان في قلبها ، وقد عرف ما يساورها من أفكار.. وكانت نظرته تلك تطيّر عن قلبها كل غربان الهمّ وتزرعه وردا ونثار ذهب وجوهر..

عند الرحيل أحسّت قلبها اضطربا
مثل الحصان جرىٰ في قيده وكبا
والنفس تلبس في التوديع زلزلةً
مَن قال يجهلُ معناها فقد كذبا
مدّت يدا ..لوّحتْ للحيّ دامعةً
ومسّحت فوق خدّ الورد ما انسكبا
وقد أشاحتْ عن الخيمات واقفةً
ومسّح الكحلُ رمل الحيّ وانسحبا
شيء بأضلعها ، كالسيف يقطعها
يكوي ويشوي كجمر النار ملتهبا
تحسّ بالخوف يسري في جوانحها
ومن أحسّ بما يسري بها تعبا
كانت تفكّر في أسباب حالتها
وزاد حالتها أن تجهلَ السببا
فهل تعود خريفا جوف هودجها ؟
أم أنّ هودجها للبعد قد وُهبا ؟

كان الفجر كئيبا بمشهد الوداع والعناق والدموع والأيدي الملوّحة ، ولو كان الحيّ حاديا لغنى واصفا حالهم وهم يتركونه مرتحلين :

ساقوا وغبّر في الصحراء ما ساقوا
ضأنٌ وعيرٌ نجيباتٌ وأرزاقُ
وفي الهوادج ظبياتٌ مخبّاة
وأسوراتٌ وأقراطٌ وأطواقُ
وكم أطلتْ كحيلات..وكم ألمًا
تلفّتت نحو ذاك الحيّ أعناقُ
بعضٌ يدلّكُ في الأثواب أضلعهُ
والبعض يهمسُ : (آهٍ كم سنشتاقُ)
والبعض يمسحُ عينا في عمامتهِ
وما تبقّى على خدّيهِ رقراقُ
والدهرُ في الصفو جمّاعٌ على حذرٍ
والدهر مهما يطول الصفوُ فرّاقُ

سارت القافلة ساعة .. وعلا الفجر الواضح على الآفاق ..واقترب سعيّد بجواده من هودج حيزية ..وقال ملمّحا،كأنه يخاطب الشمس ، وعيناه على الأفق البعيد الذي سيطلع منه ظفرها:

هيّا أطلي ..ولو خطفا على حذرِ
وريّحي القلبَ لو بالكشف عنْ ظُفُرِ
دعي الدلالَ ،وقولي لي بلا كذبٍ
متى تعلّمتِ رفعَ الأنفِ في كبِرِ؟
يا شمسُ ،قلبي بلا عينيك منخسفٌ
ومنك يأخذُ معنى النور كالقمرِ
فإن تطلّي ، فقد فزنا بمنيتنا
وإن أبيتِ خسرنا فرصة النظرِ
وما عليك إذا أطللتِ مِن حرجٍ
وما عليك إذا أطللتِ من ضررِ

وقد عرفنا قلوب الغيدِ لينةً

فمن متى أصبحتْ صمّاءَ من حجرِ ؟

وكانت حيزية تستمع إلى ما يقول سعيّد ، فيزيدها ذلك نشوة ودلالا وتمنعا .. بينما كانت القافلة تشق طريقها شمالا شمالا ..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثالثة والعشرون

مرّ يوم..وهاهي القافلة في يومها الثاني تثير الغبار متجهة نحو الشمال..وقد كان المساء صيفيا صافيا ، حين وجّه سعيّد لجام جواده نحو هودج حيزية، وحين حاذاه همس باسمها فأطلّت..وأشار بيده فنظرت .. وكانت سعادتها كبيرة حين رأت في البعيد ثلاث غزالات مرهفات السمع في حذر..ولعلّها انتبهت إلى سعيّد الذي استغرقه المشهد،فتذكّرت ما كان قاله لها يوما عن تشبيهه النساء بالغزلان :

قلبي بكل ذوات الكحل ولهانُ
والحسن شتّى.. وشكل الحسن ألوانُ
عينا الغزالةِ ، رمشاها ، ونظرتها
كأنها أنتِ..والظبيات نسوانُ

وصيدها ، مثل صيد الغيد، سيّدتي
لذا يقال عن الحلواتِ غزلانُ

وتذكّرت حين خرجت معه إلى المكان الذي تكثر فيه الغزلان وطلبت منه أن يصيدها..وبين إحساس بالسعادة وشعور بحزن البعد عن الديار، كانت شفتاها تتسعان وتضيقان.. ثم قالت لسعيّد في نوبة غيرة وكان لايزال يتأمّل تلك الغزالات :

إني أراكَ تذوب الآنَ ولهانا
وتُظهرُ الحبَّ أشكالا وألوانا
فهل تَراها غزالاتٍ كما خُلِقَتْ؟
أم هل تراها - هداك اللّهُ- نسوانا ؟
دعنا نغادرْ..فإنّ النار تأكلني
أو كُفَّ عن نفخ جمر الغيرة الآنا

ووجدها سعيّد مناسبة ليزيد من تأجيج نار غيرتها التي يحبّها كثيرا ، كونها تحسست بما تحمله له هذه الأميرة الفاتنة من حب مجنون..وقال:

ما كان من طبع قلبٍ ليّنٍ كانا
فلا تلومي ..يميل القلب أحيانا
أحِبّ من أعين الغزلان ناعسها
ومن كلامِ بنات العزّ ما لانا
ومذ عقلتُ وقلبي يكتوي ولهًا
وقد خُلقتُ بهذا الضعف إنسانا

وابتسمت حيزية لجنون سعيّد ، وقالت في اعتداد بنفسها:

يا زائغ العين ،يكفي..لا تثر غضبي
أنا أغارُ..وأحيانا.. بلا سببِ

لا شيء مثلي ..أنا في الحسن واحدة

كالبدر بين نجوم الليل والشهبِ

ومن عرفتَ من الغزلان ، من حملٍ

أما أنا ، فكما تدري من الذهبِ

إن كان عندك رأي آخرٌ..حسنٌ

دعني إذن يا حبيب الكلّ،وانسحبِ

هذي الأظافر ظمأى..منذ كم سنةٍ

فهل تريد دماء الخمش للركب ؟

ألستَ من مزّق (السبّاطَ)([26]) في أثري ؟

فدعك بالله يا هذا من الكذبِ

[26] - السبّاط : الحذاء..من السبات بكسر السين جمع سبتية ،ومنه حديث أبي داود: عن بشير بن الخصاصية قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرّ على قبور المسلمين ،فقال : لقد سبق هؤلاء شرًا كثيرا ، ثمّ مرّ على قبور المشركين فقال: لقد سبق هؤلاء خيرا كثيرا ، فحانت منه التفاتة، فرأى رجلا يمشي بين القبور في نعليه ، فقال : يا صاحب السبتيّتين ألقهما

obeikandl.com

ولأنّ الجمال والدلال هو الذي يحسم الجولات لصالحه في الأخير، فإنه كان على سعيّد أن يعود بعد كل مناوراته ليعترف بما لحيزية في قلبه..وقال:

لا لستُ أنكر ..بل بالعكس أعترفُ
وذاكَ يرفع مقداري، ولي الشرفُ
ولو رغبتِ بوصفي حاجبيك فقدْ
أبقى أغازل أسبوعين ، لا أقفُ
حاولتُ أسرق أشعارا لأقرأها
عليك مما روى العشاق أو وصفوا
فما عثرتُ على بيتين ، معذرةً
لما اقترفتُ من التقصير واقترفوا
ولستُ شاعر فصحى كي أقول أنا
ما لم يقولوا ، وشعري ليس يختلفُ
وكلهم حينما لاحت زيانبهمْ
نسوا معاييرَ علم الحسنِ وانجرفوا

نحن الوحيدان ، من خزٍّ عباءتنا([27])

وغيرنا، برديء القطن يلتحفُ

واختلط الحبّ في قلب حيزية بالغيرة ، وغالبتها دموعها.. وانتبهت إلى المتهامسات المطلات من هوادجهنّ من قريباتها..فقالت لسعيّد :

لا تستفزّ عيونيَ ..دمعتي تقفُ

على شفا جرُف العينين ، ترتجفُ

وأنت تدري كثيرا كيف تغضبني

وفي إثارة ناري أنت محترفُ

دعنا نغيّر موضوع الحديث ، وإنْ

أردت رأيي ، فدعنا الآن ننصرفُ

وأحسّ سعيّد أنه قد فاز مرة أخرى بجولة إثارة كوامن قلبها ، فهمس لها في حنان وامتنان:

[27] - إطلاق المفرد يراد به المثنى معروف في العربية ، ومن أدلته قوله تعالى (والله ورسوله أحقّ أن يرضوه)وعليه من شواهد الشعر الكثير ..

أهواكَ يا أسْوَدَ العينين.. أهواكَ

ومن أنا يا حبيب القلب لولاكَ ؟

أكون قربكَ..من حبّي يراودني

شوقٌ ، وأرغب لو في الحال ألقاكَ

جنون غيرتك الحمراء أعشقهُ

وكم يروق بهِ للعين مرآكَ

ومضت القافلة نحو الشمال ، متمايلة كسرب قوارب..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الرابعة والعشرون

هي ذي القافلة تنام وتصحو ..وتنزل وترتحل ..وقد اقتربت من (بازر) ، حيث تعوّدت النزول منذ سنوات .. ولعلّ حيزية قد عرفت المكان حين أطلت ، بعد أن سمعت ما سرى في القافلة من همهمات وهينمات وهمسات..ولم يكن يفصل القافلة عن مكان نزولها ذاك غير مسيرة يوم ..

وقد عاود الشعور الغريب قلب حيزية، فرفعت صوتها في سرّها تغني بنغمة كألحان العراقيات حزينة متعبة.. :

يا حادي العيس ..طرّبْ أيها الرجلُ
طرّبْ برفقٍ.. فقلبي ليس يحتملُ
إلى الشمال تهزّ النوقُ ما حملتْ
والله أعلمُ يا الحادي متى نصلُ ؟

هل بعد هذا وإن طال الغياب بنا
نعودُ للحيّ ؟ أم هل يسبقُ الأجلُ
وإنْ غربتُ كشمس بعد طلّتها
هل يذكرُ الناس وجهي كلّما نزلوا ؟
وهل ستشتاق لي الخيماتُ دامعةً
والدرب والهودجُ المحمولُ والجَملُ ؟
وهل سيحلو لمن في القلب مسكنهُ
بعدي الصبابةُ نحو الغير والغزلُ ؟

كانت عينا حيزية ترتميان بعيدا على تلك الآفاق،حيث مضارب (بازر) .. وتحركت أغصان قلبها بريح الماضي .. وهزتها الذكريات .. واسترجعت رحلتها الماضية والتي قبلها..بكل ما فيها من العشيات المنعشة والسمر الجميل ..ولئن كان الرجال يتذكّرون من الماضي خطوطه العريضة، فإن النساء يستعدنه بتفاصيله خيطا خيطا .. ولعلّ ذلك ما التهم حيزية في تلك الساعة،ولم يفلتها إلا وسعيّد يقترب من هودجها على

حصانه ، وقد بدا على محياه المتعب من أثر الرحلة ومشقتها ، بعض الانتعاش والسرور.. وقال يخاطب ابنة عمه بصوت خافت ، محاذرا :

للذكريات هنا ما لست أنساهُ
هل تذكرين ؟ (سقى أيامَها اللّهُ)
هل تذكرين؟ وهل ينسى الذي وطئتْ
رجلاه يوما دروبَ الوردِ ممشاهُ ؟
وكيف ينسى جريح الحبّ ندبتهُ
وكيف ينسى إناء الطين محماهُ ([28])
هنا جلسنا..تهامسنا بأمسيةٍ
وباح صَبٌّ لمن يهوى ببلواهُ

[28] - المحمى: هو المكان الذي تحمى فيه على النار آنية ومصنوعات الفخّار بعد صنعها ، لتجفّ وتصلب..

هنا رددنا على غيمٍ تحيّتهُ
وحين أمطرَ ساعاتٍ شكرناهُ
هنا وأذكرُ قد غنّيت لِي سحرا
همسا، وشقّت ضلوعي حينها الآهُ
خيوط ثوبك لازالت هنا ، وهنا
فُتات مسككِ ذاك الكنتُ أهواهُ
هنا رآكِ إمام الحيّ واقفةً
جنبي فغيّرَ في النسوان فتواهُ

واهتزّ عفريت الذكرى في قلب الصبية ، فعلت حوله الزوابع ، تطيّر قلبها كعود تبن .. وتنهّدت تنهيدة عميقة،لتقول:

وكيف أنسى؟ .. وهل ما بيننا يُنسى؟
ماذا سأذكرُ إن لم أذكرِ الأمسا؟
والنار قربكَ يا ابن العمّ باردة
والحزن يصبحُ إن تلمسْ يدي عُرسا

oberikanali.com

أهديك عمري ..وإن تطلبْ بقيتهُ
بلا تردّدِ قلبي زدتكَ النفسا
لكن أخافُ.. عيون الناس حاسدة
فاتركْ لوقتِ نزول الهودجِ الهَمْسا
كانت تلغّمُ في مكرٍ معانيَها
وتنفخ النارَ في ألفاظها دسّا
وكي تقول له (مهلا)،ملمّحةً
مدّت تصبّرهُ من كفّها خمسا

وبلغ القوم منزلهم .. فنزلوا يفكون عن ظهور الإبل أحمالها وهوادج فيها أعينهم من قوارير كسّر الحادي بعضها بغنائه على طول الطريق الطويل بين سيدي خالد وبازر..

oberkanal.com

obeikandl.com

الحلقة الخامسة والعشرون

مرّ على قدوم سعيّد وحيزية إلى التلّ شهر..ابترد فيه القوم من حرارة سيدي خالد، وتزوّدوا فيه بما سيرجعون به من قمح وشعير وتبن.. ووجدت فيه قطعانهم وإبلهم من بقايا الحصيد ما تأكل..

وهاهي ليلة أخرى من ليالي الصيف الجميلة .. وقد جلس سعيّد وابنة عمه أمام خيمتهما بعد أن صليا العشاء..يتأملان النجوم ويبتردان من قيظ يوم حار ويستروحان بنسائم خفيفة شمالية بحرية .. وكان أمامها صحن من الفخار فيه مقدار حفنتين من (القلية) ، وهي قمح مشويّ على صفيح على النار.. تتناوب عليه يداهما،تأخذان منه..

كانت السماء صافية مقمرة ..بينما صوت الجُدْجُد يعطي الليل نكهته .. ولعل ذلك الجوّ الرومانسي الحالم قد حرّك في حيزية الكثير من أشواقها إلى

سيدي خالد ، فقالت تخاطب نجمة رفعت نحوها عينيها:

يا نجمةَ الليلِ لو حقّقتِ لي طلبي
أعطيكِ ما شئتِ مِنْ عطري ومن ذهبي
سيري جنوبا.. إلى حيّ يذوّبني
فيه البعاد ، ولولا ذاك لم أذُبِ
خذي اتجاه فؤادي للجنوب ولا
تَستطولي الدربِ مِن وَهْنٍ ومِن تَعبِ
فإن وصلتِ فهاتي لي ولو خبرا
وشاهدا ، لو كرأس الظُّفرِ من حَصَبِ
ناديه كالطفل..إن لبّى ، فبغيتنا
وإن تظاهر مشغولا ولم يُجبِ
فلتذكريني ..بإسمي .. واسم والديّ
دعيه يسمع أيضا بعدها لَقَبي
وبلّغيه سلامي .. واذكري عطشي
لدفئهِ السكريّ الحلو كالعنبِ

وكلّميه كلام البنت والدها

بمنتهى خجل العينين ، والأدبِ

ولا تلوميه ، بل بوسيه صادقةً

فما على الحيّ إن هاجرتُ من عتبِ

فسوف يفهم ما أعنيه ساكتةً

وسوف يرجفُ مثل الغصنِ من طربِ

وأخبريه بشوقي .. أو صفيه لهُ

قولي له مثلا: (كالنار في الحطبِ)

ولا تبوحي بسرّي ، إن سئلتِ، ولا

تبيّني في اشتعال الشوقِ، ما سببي

وأدرك سعيّد ما في قلب حيزية من الشوق والوفاء لحيّها،وما فيه من الحنين لحبات رمله ، فقال وهو يلمّع خاتمها بيده ، يشعرها بحنانه:

غدا نعود، ومن قد هاجروا رجعوا
ويرجع الشمل مثل الأمس ، يجتمعُ
وكل خافقِ ريشٍ طارَ مبتعدا
عن أمّه الأرض..مهما قد نأى، يقعُ
وقيل : يأكل ماءُ النهرِ جانبَهُ
وكلما ضاقَ من جنبيهِ يتّسعُ
فهل تريدين أن تحظيْ برفقتنا
دون الترحّل؟ هذا إسمه الجشعُ
وليرحم الله أقواما بلا طمعٍ
من الذين بشيء واحدٍ قنعوا
أنا ؟ أم الحيّ ؟ فاختاري بلا حرجٍ
حبلٌ يدوم.. وحبل سوف ينقطعُ

وتسللت مشاكَسة سعيّد إلى قلب حيزية،فابتسمت،وأشرق وجهها في ضوء القمر..فكان قمرا..ولعله استحسن منها ذلك، فقال:

أموت من شفةٍ في الضوء تبتسمُ
تشبّ كالنار في صدري..وتلتهمُ
أموتُ من نظرةٍ خجلى ، على عجلٍ
كرَميةِ السهمِ، بالشريان تحتدمُ
أموتُ في نعسةِ العينين ..تنسفني
نسفا ، ومن وردة في الخدّ ترتسمُ
أموت فيكِ.. وفي عينيك .. في خُصَلٍ
على الحواجب ، بالعينين ترتطمُ
لو كان للقلب ظَهرٌ ، كان قوّسهُ
حِملُ الصبابةِ، حتى كاد ينقصمُ
أشيب منكِ ترى؟ أمِ إنني ولَها
أشبّ منك؟..أنا في الأمر منقسمُ
تمضي الليالي على قلبي مرصّعةً
كأنها حلُمٌ من بعده حلُمُ

في الأرض كان الحبيبان ينسجان ثوب الغزل المطرّز بأحلى الكلام ..وفي السماء كانت النجوم تنتظر عودة النجمة التي أرسلتها حيزية إلى حيّها .. بينما كان الجدجد يواصل عزف ألحانه لفراشات الضوء ..

obeikandl.com

الحلقة السادسة والعشرون

مرّت الأيام سريعة ، امتصّ الزوجان سعادتها إلى آخر قطرة.. ومع كل ريّ يزداد الظمأ إلى المزيد ..وكذلك هو الفرح ، لا يمتلئ منه القلب ولا يشبع .. والقلب نار خضراء والفرح حطب ورديّ..ولا تشبع النار حتى وإن كانت خضراء ، من الحطب حتى وإن كان ورديًا..

ولعلّ سعيّد وحيزية قد أخذا من السعادة هنا ما يكفيهما لعمر كامل .. تسابقَا ، جرَيا ، صعدا،نزلا ،تأمّلا الشمس وهي تشرق والقمر وهو يطلع من خلف الآفاق،ورافقا أسراب الطيور إلى أبعد نقاط تتراءى لهما فيها .. وأعادا تلوين الكون ، وقرأ سعيّد في دواوين عيني حيزية الكثير من الشعر الفصيح ..وصبّ في قلبها الكثير من سواقي الغزل وجراره .. وصنع لها من القمر خلاخل لطالما رقصت له بها .. وناداهما العَود فلبيا .. وهي ذي ليلتهما الأخيرة،وفي فجر اليوم التالي سيرحل

القوم إلى سيدي خالد ، تشدهم حبال الشوق إلى الحيّ الذي غابوا عنه صيفا..

وقالت حيزية متأثرة:

كأننا ما بَقَيْنا هاهنا جُمَعا [29]

ولا تعالى هنا طيرٌ ولا وقعا

ولا أثار جوادٌ نقعه أبدا

ولا بدا قمرٌ ليلا ولا طلعا

ولا جرت عنزة عطشى لساقيةٍ

من النساءِ، ولا راعي النياقِ رعى

ولا تحرّك شيءٌ في حشاشة منْ

يعدّ أيامهُ شوقا ، ولا دمعا

وأضاف سعيّد يوافقها:

[29] - جمع جمعة ، وهي الأسبوع.

oberkanal.com

ولا قرأتُ لكِ الأشعار ساهرةً
تحت النجوم، ولا غازلتُ من سمعا
ولا صنعتُ من النجمات أسورةً
ولا خواتمَ من نجمٍ إذا لمعا
ومن دعاه منادي البعدِ ، أبَعَدَهُ
ومَن أتمّ ليالٍ بُعدهِ، رَجعا
غدا نسير إلى أرض ترافقنا
إذا بَعُدنا .. وتبقى إن نأتْ وجعا
رغم الشهور، خيوط (الحيّ) تجذبنا
وحبلهُ رغم كل البعدِ ما انقطعا

كانت النجوم تتلاعب بأضوائها ، مثل بنات صغيرات يتغامزن بعيونهنّ..وبين لمعان وخفوت.. تتحوّل السماء إلى مسرح لجنيّات الضوء الراقصة .. بينما كان فارس عربيّ مخطوفاً بلمعان أساور وخواتم نجمته تحت ضوء القمر.. ولعلّ روحا هلامية ضوئية غنّت :

الليلُ طفل فضوليٌّ..وكتّامُ

يبيت يعذل أهل الحبّ إن ناموا

وقد يبيت يرشّ العطر فوقهمو

ليستفيقوا.. ويُبكيهمْ إذا قاموا

من لا يبلّلُ شهّاقا وسادتهُ

فكلّ دعواه في العشّاقِ أحلامُ

والعاشقُ الحقّ..من ساعاته جُمَعٌ

وأوّل الليلِ من أشواقهِ عامُ

وفيُّ عشقٍ.. له أنثى مؤكّدة

ودونها كلّ غيد الأرض أوهامُ

لها مفاتيحه.. في الخصر تربطها

وللبقياتِ منه القلبُ أختامُ

في تلك الليلة حدّث سعيّد ابنة عمّه عن حبه لها ،كما لم يفعل قبل ذلك أبدا .. وحدّثته هي عن جنونها به كما لم تبح مرة .. واشتدّ في قلبيهما الهوى وترقرقت

العيون ، وتسمّرت في بعضها تجدد العهد وتؤكده.. وقال سعيّد وهو يمسك جهة قلبه من صدره ، بيمناه:

أكلُّ مَن يعشق الليلات يحترقُ
ويعرف الغيرة الحمرا ..ولا يثقُ ؟
ويسهر الليلَ مثلي .. قرب شمعتهِ
وإن جرت نحو باب قامَ يستبقُ ؟
وإن رأى البرق ، شقّ البرقُ مهجتهُ
شقين..أو مات شوقا مثلَ من سبقوا ؟
وإن تبسّم خَمريُّ الشفاه لهُ
وأومض العاجُ.. غطّى الوجه يسترقُ ؟
يغصّ بالدمعِ.. إن غنّت مطرّبةٌ:
(وكلّ مجتمع لا بدّ يفترقُ)
تبكيه غيمةُ ليل الصيف إن رعدتْ
والغيثُ يقتلهُ..والريحُ والشّفقُ ؟

وقطرة الماء في (أفريلَ) تربكهُ

إذا رآها على الأزهارِ تأتلقُ ؟

إن جسّ شيخٌ له نبضا يعالجهُ

أجابَه النبض: ما في صدره رمقُ

أكلّ مَنْ رسمَ العينين في حجرٍ

عليه لعنة رسم الكحلِ تنطبقُ

إن كان ذلك .. لا كان الهوى أبدا

ولا تواجد فوق الأرض من عشقوا

وحين أنهى قالت حيزية :

كل العشاق يحترقون .. لكنّ نيرانهم تختلف ..نار برد وسلام ، ونار تحيل إلى رماد ، وما أظن ناري تجاهك ستبقي مني شيئا يا ابن العمّ.. وسار الليل نحو الفجر كجمل أسود نحو الشمس..

obeikandl.com

الحلقة السابعة والعشرون

فجرا..كانت نسائم أول الخريف تتداخل بنسائم آخر الصيف .. واهتزت الهوادج وتمايلت العير وضبحت الخيل في اللُجُم.. وسيقت القطعان ، ولولا غبش الليل الذي لازال يبسط على المكان رداءه لظهرَ نقع الحوافر وغبار الأقدام متعاليا..

احتمل القوم متاعهم ونقضوا خيامهم ، ولم يتركوا غير دمَنهم وبقاياهم في (بازر).. وطارت قلوبهم تسبقهم إلى سيدي خالد ..

كانت حيزية في هودجها تسترق النظر رغم الغبش إلى ما خلفته وراءها من ذكريات ..ولولا ما كانت تحس به في تلك الساعة من الصداع والحمى ، لكان لها في وداع هذا المكان الذي ألِفَه قلبُها شأنٌ آخر..

كان خداها متورّدين .. بينما أصابعها تشد على جبينها وتعصره .. ورغم ما بها ، فقد كانت تمنّي نفسها بالعافية..

كانت تحاول أن تخفي الأمر عن سعيّد ، رغم أنّها أخبرت أمها بما تجده في نفسها من الوهن،لتجيبها وهي تبتسم ابتسامة أنثى مخضرمة: (ربما سأصبح جدة عن قريب)..

ولعلّ أحد الصغار قد سمع ما دار بين حيزية وأمّها،فجرى إلى سعيّد يخبره..

كانت الوهاد والنجود آنذاك قد زفرت الظلام وملأت رئتيها وعينيها ضوءً.. وبدت معالم الطريق والمكان .. واقترب سعيّد من هودج حيزية ، وحين حاذاه ، أنشد يقول :

قولوا لواسعة العينين ما الخبرُ ؟

وما بها ظبيتي السمراء ؟ ما الضررُ ؟

أنا هنا يا التي في القلب مسكنها
أهدّئ النار في قلبي ،وأنتظرُ
وما تُسرّ فتاة جوف هودجها
لأمّها ، مثل ريح العطر ينتشرُ
فسامحَ اللّه من في الريح نشهقهمْ
وهُمْ بنا رغم تلك الحال ما شَعَروا
هل ما سمعنا صحيحٌ ؟ من يبشّرنا ؟
وما اسمُ مَن فيكِ؟ (أمُّ الخيرِ) أم (عُمَرُ) ؟
قلبي عليها قليل الصبر، يوجعني
وقلبها بنت عمّي ،قلبها حجرُ

ورغم ما بها ، ابتسمت حيزية من جنون ابن عمّها،وأحسّت بنشوة الدلال....والنساء زهور لا تملك أمام رياح الدلال استقرارا .. يهزّهن المدح والثناء والتدليل، ويرجّفهنّ نسيم الغرور..

ولم يكن عندها من الشجاعة لتخبر سعيّد بحملها ،لكنّها أطلت عليه من هودجها وهي تطمئنه همسا:

بالخير صبّحتُ وجه الخير بالخيرِ
أموت فيكَ.. صباح الخير .. يا عمري
أهديك أحلى رذاذٍ في نسيم صَبا
وما تفتّحَ في الدنيا من الزَهرِ
لا بأسَ، خيرٌ بإذن الله ..مرهقةٌ
صداعُ رأسٍ،وبعض الضيق في صدري
ولفحُ حمّى ..ببعض الماء أُبردُهُ
وليس كالماءِ يا ابن العمّ للجمرِ
وقد نظرتُ إلى عينيكَ متعبةً
قد أستريحُ.. وقد أشفى ..ومن يدري؟
والله يغسلُ بالأمراض مَن صبروا
ويرفع اللهُ ضرّ الناس بالصبرِ
فلا تخفْ يا حبيبي .. غيمة طرأتْ
وسوف تعبرُ بعد الفوز بالأجرِ

ولأنّ سعيّد يعرف جيّدا غرور ابنة عمه، وما يفعل فيها الغزل ..فقد صبّ من يقطينة ميبّسة كفّ ماء ورشّها به..فقالت وهي تخشى أن يلاحظ القومُ لهوهما: (يا مجنون)..

ليردّ عليها :

مَن لم يُجنَّ برمشٍ فهو مجنونُ
ومَن بعينينِ لم يفتنْ..لَمفتونُ
وأسوأ الناس حظا من بكى وشكا
لمن أَحَبّ..وما في الشوك زيتونُ
وليس يُفتى بأمر الحبّ في بلدٍ
وفيه شيخٌ كثيرُ العشق ، ملعونُ
وليس في الحبّ وصلٌ دائمٌ ،أبدا
وليس فيه برغم (العهد) (مضمونُ)
وأكثر الموت في العشاق طَعْنُ قفا
من لم يَخُنْ مَن هواهُ ، فهو مطعونُ

علامة الحبّ شيبُ الرأس في عجلٍ
ثمّ النحول، وذا في ذاك مقرونُ
ومن أسرّ لميسونٍ بنار حشا
زادته نارين فوق النارِ ميسونُ

وضحكت حيزية ورأى سعيّد اتساع شفتيها بتلك الضحكة الصافية البريئة ، وأراد أن يقول شيئا تماديا في جنونه ..فنهرته وهي تقول:
ألا تخاف أن أخبر القوم وأفْضَحَكَ عندهم ..؟
قال : وما الذي ستقولينه لهم ؟
قالت : أقول:

يا ناسُ هذا حبيبُ الروحِ يا ناسُ
طفلٌ صغيرٌ ، رقيق القلب ، حسّاسُ
كأنه كأس ماء، عشت أرشفهُ
وما ارتويتُ..ألا فليسلم الكاسُ

وضحكا ، بينما كانت الإبل تمدّ أعناقها نحو الجنوب يستعجلها الشوق إلى الديار..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثامنة والعشرون

مضى يومان ، وحطّ القوم رحالهم مستريحين من وعثاء الطريق ، قرب قرية صغيرة تسمّى (عين أزال) .. في تلك الليلة ، بدا على حيزية أنها لم يعد بإمكانها إخفاء مرضها .. فقالت لسعيّد ورأسها في حجره ، بينما يده تبرّد وجهها ببعض الماء:

أحسّ بالخوف ، بالأحزان، بالقهرِ
ومن سواكَ سأحكي عنده سرّي
عندي شعور بأنّ الموتَ يلبسني
شيئا فشيئا ، من الرجلين للصدرِ
وقد أكون غدا في العصر ميتةً
وقد أعيش إلى التسعين.. من يدري ؟
ولست أوصيكَ إن فارقتُ يا ولهي
سوى بدعوة خيرٍ لي ..وبالصبرِ

وفي الحقائبِ أثوابٌ بها عرَقي
وفي الزجاجات ما أبقيتُ من عطري
وعند أمّي حليّي، ما يزيّنني
في الرسغ والأُذْنِ والسيقان والنحرِ
فحين تشتاق جدا ، شُمّها فبها
منّي كما تتركُ الجرّاتُ في النهرِ
ذكرى ، ورائحةٌ تسبي، وطيفُ هوىً
وروحُ عابرةٍ للنحل في الزهرِ
إذا أتيتكُ في رؤياكَ باكيةً
فذاك يعني بأنّي اشتقتُ يا عمري
والشوق يفعل في الأموات فعلتهُ
فإن أتيتكَ في حُلْمٍ .. فزرْ قبري

لم يكن بمقدور سعيّد الاستماع إلى ذلك الكلام الذي يفتّت القلوب والأكباد ..كان قلبه عصفورا تمزّقه صقور الحزن بمخالبها .. أما عيناه فكانتا دجلةً وفراتًا

..وللمحبين في فراقهم ما يُبكي الصخر.. وقال وهو يجهش:

كفى بربّكِ إنّ القلب قد شبعا
خوفا، وعبّأهُ بالدمعِ ما جَرَعا
أحسُّ شريانهُ مما نطقتِ بهِ
قدْ مطّهُ الحزنُ في جنبيّ فانقطعا
فأنت عمري.. ألا تدرينَ؟ أنت دمي
إن ضخهِ القلبُ نحو الجسمِ ، أو رجعا
وداعكِ القاتلُ المحزون فتّتني
فلا تزيدي ، فقد عبّأتِني وجَعا

قالت حيزية بعض مما يشعر بهِ العصفور الخائف في صدرها..وقال سعيّد بعض ما سرى في شراييهِ من الوجع.. وكان لتلك الليلة بعض ما تقولهِ ، وقد قالتهِ ..

في الفجر كان على القوم أن يستأنفوا رحلتهم .. واقترب من حيزية يوقظها.. وامتدت يده تسدّ فمه،تمنع صرخة ألمٍ بحجم الليل الذي لاتزال منه بقايا .. بينما اتسعت عيناه من الدهشة..وعقدت الصدمة لسانه ولعثمته ،فاضطرب يهمّ بالخروج ليخبر القوم ،ثم يعود يحرّكها ليتأكّد أنها لازالت حية ..

لقد دخلت جميلة سيدي خالد في غيبوبة .. وما عاد منها حيا سوى قلب مجهد ينبض ،وحرارةٍ تشوي الجسد المكدود ..

واهتزّ القوم لخبر غيبوبة حيزية ، وكان أسوأ ما أصاب سعيّد أنّ صلته بحبيبته قد انقطعت،فلا هي تسمع كلامه ولا هي تراه ..وكان عليه أن يواصل رحلته نحو سيدي خالد ، فلعل الله يحدث في الطريق أمرا ، فقد تزول هذه الغيبوبة وتفيق أحلى الصبايا وتفتح عينيها .. وبين خوف وأمل .. كان سعيّد طوال الطريق يقترب من هودج حيزية ليسأل أمها التي تلازمها فيه عن حالها .. وفي كل مرة يكون الجواب هو الجواب .. ولا جديد..

ومرّ اليوم الأول ، والثاني ..وفي استراحة للقافلة ،جثا سعيّد على ركبتيه كما يجلس طفل يتيم أمام شاهدة قبر ..محطّما وقد عجز ما وصفه كبار السن في القافلة من الدواء لحيزية عن أن يعيد السلامة إلى جسمها أو يعيد البسمة إلى شفتي ابن عمّها .. وللأقدار حين تنطق أحكامٌ لا ينفع معها طب ولا دواء ولا شفاعة..

تأمّل الفتى وجه ابنة عمه ، وكانت دموعه تسيل من عينيه ساقيتين .. وقال وهو يهزها متوجعا وقد ضاقت به السبل :

هذا السكوتُ هداكِ الواحد الأحدُ

موتٌ بطيءٌ..حريقٌ أحمرٌ.. كَمَدُ

ألا ترينَ بأني كاليتيم وقدْ

لزمتُ جنبكِ كالعصفور أرتعدُ ؟

هل تشعرينَ بهمسي أو بنبض يدي

وهل تحسّين - قُولِي لِي- بما أجدُ؟

أحسّ طيفكِ يا خوفي إذا اقتربتْ
خطايَ منه يحيّيني ويبتعدُ
أحسّ كفيك نهرا ،حين ألمسهُ
يجفُّ يصبحُ رملا حينما أردُ
يا روح روحي ، ويا عمري ، وسوسنتي
يا مَن يخبّئها في حضنه الكبدُ
إن كان هذا أوان الهجر سيّدتي
فودّعي من إذا غُيّبتِ يفتقدُ
عِدِي فؤادي بأن تبقَيْ حبيبتَهُ
وأرحمُ الناس في التوديع من يَعِدُ

رفع سعيّد عينيه إلى السماء يدعو ربه منكسرا ..وكان في السماء زوج صقور يستعجل الفرح ويبادر الفراق .. وكم تتحطّم في القلب من أحلام حين يفقد مَن ألِفهم ومن امتزجوا بالروح وتداخلوا في الحشاشات..

الحلقة التاسعة والعشرون

مرّ على غيبوبة حيزية وتركها الكلام ثلاثة أيام .. وهو ذا مساء ثالث يوم .. يهبط كرخٌ أسود ضخم الجناحين ..

نزلت القافلة لقضاء الليل .. وما كان قلب سعيّد سوى حبة (قمح) صغيرة ، ضاقت بما فيها من ألم .. أما وجهه فقد شحب وبدت عليه أمارات التعب وعلامات الحزن والكدر.. وكان كلام والدة حيزية يطمئنه ويبعث في نفسه بعض ما يسرّي عنه..غير أنّ أعواد الخيزران في قلبه كانت تحسّ بأنّ الذي كان يهزها من الريح آنذاك ، إنما هو بدايات للعاصفة التي ستكسرها،أو تقتلعها من جذورها..وللقلوب عادة ما يخبرها بالضر قبل وقوعه..

كانت الليلة أكثر سوادا في عيني سعيّد مما هي عليه..وأحسّ بأنّ خنجرا يقترب من نياط قلبه ..يكاد

يحـــزه.. وتأمّـــل وجـــه حيزيـــة وقـــد تغيّـــر لـــون جفونها،وسافرت السمرة الفاتحة نحو الزرقة..

كانا على سماط واحد ..ولم تمتد يده إلى ما وضعته والدته على ذلك السماط من طعام ..فقد كان في الحلق ما يمنع الطعام من النزول ..

تأمّل غزالته لساعة بعينين حانيتين.. بينما يده تفرك كفها .. تمنى أن تفتح عينيها للحظة ..أن تقول له كلمة ..أن تطمئنه ..أن ترحم قلبه الذي شاخ في خمسة أيام .. أن تمد يدها لتطمئن كفّه التي تغيّر النبض في رسغها .. فهل كل ذلك مجرّد حلم ؟ وهل يمكن أن يداهم قلبه على حين غرة كلُّ هذا الطوفان المدمّر ؟

فجأة ..وبينما هو يبني من رمال أفكاره قصورا ويهدمها .. أحسّ بحركة تدبّ في جسم زوجته.. وكانت الغرغرة..

ضمّها إلى صدرها ..سالت من ثغرها ملعقة ماء كان قد وضعها فيه منذ لحظات ..

واهتزّت العصفورة الجميلة الملتهبة بالحمى .. وتلجلجت .. واضطربت ..بينما كان سعيّد يضمّها إلى قلبه وهو يبكي بحرقة .. واجتمع القريبون من الأهل.. وازدادت دقات القلوب حتى بلغت أوجها .. ووضع القمر يده على صدره، وخبت النجمات ..وأطلق سعيّد صرخة مزّق بها سكون الليل حين أحسّ بروحها قد فارقتها .. وروحها روحه .. وقد فارقته هو أيضا روحه في تلك اللحظة ..

ثلاثة أيام بين آخر مرة فتحت فيها واسعة العينين،حيزية ابنة أحمد بن الباي عينيها وبين موتها([30]) ..ثلاثة أيام كانت فيها في غيبوبتها تقاوم

[30] - حسب قصيدة ابن قيطون ، فإنّ الفترة الفاصلة بين آخر كلام لحيزية وبين موتها هي ثلاثة أيام ،لقوله :

بين موتها و الكلام غي ثلاث أيام

بقاتني بالسلام و ما ولات ليا

وقد يقول قائل إن ثلاثة أيام هي الفترة بين وفاة حيزية وبين كتابة ابن قيطون لقصيدته ، وذلك ليس صحيحا ، لأنّ سعيّد كان قد التقى الشاعر ابن قيطون بعد شهر على الأقل من وفاة حيزية ، لأنه حدّثه

الموت،وتجري إلى أبوابها تغلقها في وجهه بابا بابا .. ثلاثة أيام بين صمت الناي الجميل وبين بلوغ الشرخ فيه مداه..

وقعت أطول نخلة من نخلات الصحراء في تلك اللحظة.. وملأ صوت عاصفة المصيبة مسمع سعيّد ورأسه ..وغنّت طيور الليل من أغاني القبر والكفن ما بسطَ على المكان غلالة سوداء من الحزن.. وقال سعيّد كالمجنون وهو يهزّها من ذراعيها ويلومها:

لمنْ تركتِ قليل الحظّ يا أنتِ ؟

وكيف خنتِ عهودَ الحب إذ خنتِ ؟

عن حصانه الذي نفق بعد شهر من وفاة حيزية حزنا وكمدا عليها ، وهو ما أثبته ابن قيطون في قصيدته ، حيث ذكر أن حصان سعيّد قد نفق بعد مرور شهر على موت حيزية..يقول ابن قيطون:

بعد شهر ما يدوم عندي ذا الملجوم

نهار ثلاثين يوم وراء حيزيا

توفى ذا الجواد ولي في الاوهاد

بعد اختي ما زاد يحيا في الدنيا

فكيف أكمل عمري يا معذّبتي؟
ومَن أُحِبُّ وأنت الآن قد متِّ ؟
تركتِ للحزن قلبا كم أحبّكِ يا
أميرة الموت ، أما أنت فارتحتِ
وكنتِ نبضة قلبي يا حبيبتَهُ
وكنتِ مصباحَ نور الحبّ في بيتي

على نغمة الحزن كان على القافلة أن تتمايل إلى (سيدي خالد) ..فقد كان حلمُ الفقيدة أن تكحّل عينيها بذاك الحيّ.. إلى سيدي خالد التي لم يبقَ من عمر حيزية ما تبلغها به..إلى سيدي خالد والحادي يكسر بأغاني الوداع قلوب الرجال والنساء والإبل .. حتى القطعان كأنها أحست بالفاجعة فمشت مطأطئة وفي عيونها كالدموع.. كانت القلوب تتمزق ..
ولم يكن هذا الحيّ يعرف كيف يستقبل هودج جميلته التي ودعته ذات فجر بتلويحة من كفها

المخضبة،وبالكثير من الدمع الذي يذيب كحلها ويغرق بؤبؤيها .. وبكى الناس ..وانشقت الصدور انشقاق أواني الطين على وقْعِ الفاجعة .. ورثى الكبار لحال سعيّد المفجوع ..

في تلك الليلة لم يبرح سعيّد نعش حيزية .. بات يحدّثها عن بلوغهم الحيّ ، يصف لها الآفاق الحزينة والخيام الملتاعة والحمامات التي تحطّ على النخيل تستقصي وتسأل عن سبب حزن الحيّ..

وبين ابتسام وبكاء ، كان سعيّد يروي تفاصيل ما بعد الموت ..

كان يتأمل وجه حيزية وكأنه يستمع إليها وهي تقول له :

انظرْ إليَّ..إلى وجهي .. إلى عيني

إلى رموشي بدون الكحل في جفني

وشمّ عطر زهور الموتِ في جسدي

وامسح دموعكَ عن عينيكَ في كفْني

حتى إذا كان وجهي وجهَ ميّتةٍ
فانظر إليّ رجاءً.. لا تُشِحْ عني
للحزن أترك من أحببتُ مرغمةً
وكم ستحرقهُ الأيام بالحزنِ
ملأتُ قلبكَ حزنا .. رغم طيبتهِ
من غير قصدٍ بأن أؤذيكَ فاعذريني
وقدّر الله ما قد كان ، واختلطتْ
جرعاتُ موتيَ في الفنجان بالبنّ
أسِفتُ جدا على شمسي وقد غرُبتْ
ككل موتى طيور الحبّ في سنيّ
وكم تمنيتُ أن أبقى ولو سنةً
عسى عيون حبيبي ترتوي منّي

ولم يكن يجد غير البكاء وشمّ الأكفان وتقبيلها .. في الغد .. حين احتُملت على الأعناق أجمل صبية يَسْكُنها الموت في سيدي خالد ، كان سعيّد لا يكاد

يصدّق أنّ تلك هي آخر مرة يرى فيها حيزية..كان قلبه يطمع في أن يحدث شيء ما ..كأن تقوم حيزية من موتها ، أو أن يستيقظ هو من حلمه .. أو أن يتوقف نبض قلبه لئلا يراها تُدسّ في التراب كلؤلؤة..وقال يستجدي حامليها :

يا حامل النعش .. رفقا ...قلبُها قلقُ
فلا تهُزّ.. فقد بالهزّ ينفتقُ
لازال يطمعُ أن يبقى ،فرِقّ لهُ
كالشمس يسحبها للمغرب الشفقُ
كالمهرِ يصهلُ في حبل يقيّدهُ
يكاد يقطعُه ذعرا، وينطلقُ
وللمودّعِ غصّاتٌ تمزّقهُ
وللقلوب شؤونٌ حين تفترقُ
ألا تحسّ به في النعشِ مرتجفا
يشدّ لوحته خوفا، ويلتصقُ ؟

أعانهُ اللّهُ .. كالعصفور إن شحذوا

أمامه خنجرا للذبح ، لا يثقُ

كان سعيّد قد فَقَد عقله..أو هكذا بدا ..ولا غرابة فقد كان في قلبه الكثير من الكلام الذي لم يقله لحيزية ..وكان في روحه الكثير من الشوق المؤجل لها ..وقد فاجأه موتها فشرخه شرخا وفتّتَ قلبه ..

واقفينَ على القبر ..فقدَ سعيّد كل ما بقي في عقله من عقل،وما في صبره من صبر، واقترب منه عمه ، والد حيزية ، وقد رثى لحاله ، فأسنده إليه وضمه إلى جنبه،يقوّيه، بينما كان الفتى يهذي وهو ينظر إلى القبر مستنكرا أن يُنزلوا حبيبته في ظلامه ، هي التي كانت تخاف حتى ظلام الخيمة.. وقال :

أبكي وأكتمُ كالموجوعِ أنّاتي

وأطلُبُ العونَ مِن ربّ السمواتِ

عصفور جرح ، بلا سربٍ ، يقطّعهُ

صوت الرعودِ بليلٍ مظلم شاتِ

أبكي لمحمولة للقبر ، صامتةٍ
تودّعُ الزمن الماضي ، إلى الآتي
لا تدفنوها .. أخاف الدود يأكلها
وكيف يأكلُ دود الأرضِ مولاتي ؟
كانت تخاف ظلام الليل ، تكرههُ
فكيف ترقد في هذي الغياباتِ ؟

كان ينفض عن كفنها التراب ، ويمد يده يلمس ذراعيها،يودّعها ، والناس يمنعونه ..وهو يقول :

هذا التراب على أثوابها وقعا
وزادني فوق أوجاعي بها وَجَعا
لا تُسقِطوا فوقها الأحجارَ ، والتزموا
من الدعاء لها في الدفنِ ما نفعا
لا تفجَعوها رجاءً في أناقتها
أشدّ ما يحرق الإنسانَ ما فجَعا

تلطفوا بخضاب الكفّ.. كم تعبتْ

بهِ ، تصوّرهُ في نقشهِ جُمَعا

وأقنعِوها بأن تبقى أصابعُها

بلا خواتمَ مما رنّ أو لَمَعا

كانت تحبّ حليّ العزّ تعشقها

قضت شبابا جميلا تجمع القِطَعا

كانت لحظات أثقل على قلب سعيّد من عشرة جبال .. وبعد الدفن احتضن شاهدة القبر ورفض الانصراف .. وقد اقترب منه إمام الحيّ يقنعه بالمغادرة ، فردّ عليه :

أحسّ أنّ دمي يا سيّدي المفتي

يغلي بقلبي من الأحزانِ كالزيتِ

أيسمح الشيخ أن أبقى بجانبها

فقط لأؤنسها في وحشة الموتِ

هذي حبيبةُ عمري ،بسمتي..فرَحي

هذي جناحي ..حياتي.. شمعةُ البيتِ

وبَعد رنةِ خلخالٍ بمشيتها

لا صوت في أُذُنٍ يحلو سوى الصمتِ

أبقى أحدّثها .. أدعو.. أصبّرها

كانت تحبّ إذا حدّثتُها صوتي

ولن أطيل ، بقدر الشوق في كبدي

ولست أعرف كم يكفي من الوقتِ

إلى الخميس فقط ، قربي سيسعدها

وربّما زدتُها يومين ، للسبتِ

وإن أذنتَ فدعني عندها عمُرا

ارأفْ لحالي أنا ..أو رِقّ للبنتِ

وانفجر الناس بالبكاء ، وجلسوا معه ، يؤنسونه ، بينما هو يؤنس من أبقت له في الروح رمادا لا تغسله بحار الأرض..

الحلقة الثلاثون ،الأخيرة

ساعات قضاها سعيّد بجوار قبر حيزية ..وقد مالت الشمس إلى المغيب ..وزاد إلحاح الرجال عليه في الانصراف .. وأوقفوه يسندونه ، وهو لا يكاد يقوى على المشي ..

في خيمته في تلك الليلة ، كانت حيزية تطلّ على سعيّد من كل مكان .. وقد فرّقهما الموت لأوّل مرة بعد عُمْر.. هي ذي الطفلة التي كبرتْ على عينيه لتصير حبيبته ثم زوجته قد رحلت بعد أن ألفها وحفرت في قلبه مجراها كساقية مطر لسنوات..

كان يتأمّل أشياءها في الخيمة ، يلمسها ، يشمّها .. يضمّها ..يقبّلها..ويهذي متمتما لا يبين:

هذي الخلاخلُ ، قفطانان، والنعلُ

وتلك مرآتها..الأمشاطُ..والكحْلُ

شرائط الشَّعر..ماء الورد ، مرودها
شمعٌ ، وعطرٌ، وما يحتاجه الليلُ
خيطٌ به خرَزٌ،حنّاؤها ، خُصَلٌ
مِن شعرها ،ياسمينٌ يابسٌ ، فلُّ
وحزمة الشيح والقيصوم إن ذكرتْ
أمّ الخواتم يبكي البنّ والفجلُ
طيفا تراءى ، أمدّ الكفّ ، أفقدها
وما لمن رحلتْ سمراؤهُ وصْلُ
إن قالَ صرصرُ ريح الموت قولتهُ
فما لمن كُسرت نخلاتهمُ قولُ
حبيبة المرء إن كالشمس قد غربتْ
فليس للمرء في كل الدنا أهلُ

ازدادت وطأة الحزن على سعيّد .. وهي ذي الأيام تمرّ ثقيلة، وهو إما تائه في الصحراء يحدّث نفسها ويتتبع طيف حيزية ..أو مقيم على قبرها يبكيها ويحدّثها .. وما عند الناس شكّ أنه اختلط وجُنّ..وكان لا يرجع إلى

الحيّ إلا حين يعصره الشوق إلى أشياء حبيبته التي أبقتها ذكرى ..

ضاقت حيلة المسكين ، ولم يعد يعرف في أي شيء يجد سلواه.. وليس في الآفاق غير وجه حبيبة ، وليس في منامه سواها ، ولا في عينيه حين يغمضهما غيرها ..مبتسمة حينا،وباكية حينا..

وقد اختار سعيّد بعد هذا التبدّل في حاله أن يأتي شاعر الحيّ ، الشيخ الورع محمد بن قيطون،فيشكو إليه علّه يسرّي عنه ..وكان ابن قيطون شاعرا متدينا عابدا ورِعا تأنس النفس به وبكلامه..

وقد جاءه سعيّد، فاستقبله استقبال المشفق المتأثر،وقال سعيّد وهو يبث للشاعر الشيخ شجونه:

حارَ الدليلُ ..ويا خوفي إذا حارا

وطارَ عقلي، فمن يهدي وقد طارا ؟

وجئتُ يا شاعرَ التوحيدِ منكسرا
أريدُ منكَ - جزاك الله - أشعارا
فضع يديك على صدري لتشعرَ كمْ
يهزّني الحزنُ كالبركانِ، إن ثارا
أنا أصلّي ، ولي وِردٌ وأدعيةٌ
أسلّم الله في أمري وما اختارا
لكنّ صبري قليلٌ، هل تساعدني
على الفراق ، وقد يا صاحبي جارا؟
ويابن قيطونَ..لو تدري بفاجعتي
لما وجدت لصدي عنكَ أعذارا
فقل بسيدة النسوان ملحمةً
قد يطفئ الشعر جوفي هذه النارا

كانت عيون الشاعر تسيل وهو يستمع إلى شكوى الفتى محروق القلب..وتمتم يحكي أحوال العشاق:

ومن تتبعَ فتوى القلب مات هوى
ويخطئ العدّ مَن في الحبّ قد حسبا

ومن أحسّ ببرد القلب يقتله
مدّ اليدين إلى النيران واقتربا
إن كان شيخا مشى للنار متكئا
أو كان يحبو،رمى ألعابه وحبا

ثمّ مدّ يده يربت بها على كتف سعيّد وهو يوصيه :

اكتمْ فإنّ كلام العشق لا يُفشى
وانسَ العيونَ ..وقدّ البان والرمشا
وأنت تعرفُ حكم الدين ، تعرفهُ
والشرعُ حرّمَ شقّ الثوب والخمشا
فاغمسْ يديك بماء الصبر مبتردا
ورُشَّ قلبكَ يا مجنونها رشّا
واخشَ الجنونَ..فكم بالفقدِ من رَجلٍ
قد جُنَّ ..ويحكَ يا هذا ألا تخشى ؟

فليس يُرجع دمعُ العين من رحلوا
حتى ولو صرتَ من فرط البكا أعشى

ويردّ سعيّد:

لو في يدي.. بسنين العمرِ أفديها
وأنقِصُ الوقتَ من عمري وأعطيها
ولم يكن أبدا في البال لو عَرضا
أن سوف تنأى ، وأني سوف أرثيها
هذا أنا ، أنحني للحزنِ في وجعٍ
يمنايَ تعصر أضلاعي ، وما فيها
وليس عندي سوى دمع سأذرفهُ
أبكي عليَّ ، على حظي، وأبكيها
من أين أرجعها ؟ بل كيف أرجعها
كل الدروب إليها أصبحت تيها

حينها ، تلجلجت في صدر الشاعر ابن قيطون كلمات تحرّك بها لسانه ، بينما أنصت إليها سعيّد يشربها

بروحه ، يطفئ بقطراتها بعض ما في قلبه من النار والجمر:

(عزويني يا ملاح في رايس البنات
ســـــكنت تحـــــت اللحـــــود نـــــاري مقـــــديا
ياخي أنا ضرير بيا ما بيا
قلبي سافر مع الضامر حيزيا)

لتنقش تلك الأبيات على صخرة الوجود إحدى أجمل قصص الحبّ العذري والوفاء ، مما ستتناقله الأجيال ويرويه الرواة وتتمايل به القوافل حداء..

وتمّ كتاب (حيزية) بحمد الله بتاريخ :
الأربعاء 25 رمضان 1435 هـ
23 تموز- جويلية 2014 م

obeikandl.com

obeikandl.com

خاتمة

كان من قدر حيزية أن يصيبها الكثير مما تستدعيه بيئتها مِن عدم استيعاب ما استوعبته القبيلة العربية قديما من قصص مماثلة .. وقد نسج الناسجون بهواهم ما يسيء إلى هذه الجميلة العربية الهلالية..وقال بعضهم إنّ حيزية تعتبر عارا على قبيلتها وأعرافها ، فقد زوجها أبوها لشخص ، بينما قام ابن عمّها باختطافها،بينما قال آخرون إنّ حيزية لم تتزوج طول عمرها وأنها كانت مجرد عشيقة لابن عمها سعيّد..وقال غيرهم إنّ الشاعر ابن قيطون هو حبيب حيزية،وإنما لجأ إلى اختلاق شخصية سعيّد فقط ليختبئي وراءها..وأنها ماتت في الأخير مقتولة..

وفي قصيدة ابن قيطون تأكيد على لسان سعيّد على أنه لم يخلُ بحيزية غيره ، ولم يكشف عليها غيره سترا..ومن ذلك قوله :

(عزوني يا حباب فيها فرس دياب

مـــا ركبوهـــا ركـــاب مـــن غـــير انايـــا)
لقد قال أهل الأصول إنّ العبرة في النص بما يفهم من (عبارته وإشارته ودلالته واقتضائه)،وهنا تبدو عبارة النصّ واضحة في أنّ حيزية لم تكن لغير سعيّد يوما (ما ركبوها ركاب
من غير انايا) ، وهو ما يسقط فكرة زواجها من غيره ..
إنني لا أستطيع أن أكتب عن حيزية بعيدا عن استحضار البيئة البدوية الجزائرية في تلك الحقبة ، وما تستدعيه من المحافظة والأعراف الشديدة والاحترام المتبادل والتقاليد الحاسمة، ذلك لأنّ البعض قد تصوّر قصة حيزية قريبا من أجواء بعض الأفلام والمسلسلات البدوية أو التاريخية ، حيث يطارد العاشق حبيبته بين النخيل وهما يقهقهان ..أو يلتقيها متى شاء وكيفما شاء.. كل ذلك مما يزوّر وقائع رواية حيزية ..
ثمّ إن الأبيات التالية تسقط فكرة القائلين بأنّ سعيّد لم يكن شخصية واقعية، بل مجرّد اسم وهمي اصطنعه

الشاعر ابن قيطون ليختفي وراءه في غزله بحيزية،وأن الشاعر ابن قيطون هو الحبيب الحقيقي لحيزية ..

ففي هذه الأبيات ما يجعل هذا الكلام وهما ، إذ يستحيل في بيئة محافظة ، وشديدة الغيرة، أن يلجأ شاعر إلى التشبيب بامرأة من قريته ، فيذكر أنه رسم لها وشما في جسدها بيده،وأنه كتب اسمه على جسدها وشما،فكل هذا من المستحيلات عند من يعرف جيدا قوانين وتقاليد وشدة وصرامة القبائل العربية في الجزائر، بل إنه لم يكن من أخلاق الناس آنذاك التشبيب ببنات جيرانهم بهذه الطريقة :

(بيدي درت الوشام في صدر أم حزام

مختم تختام في زنود طوايا

ازرق عنق الحمام ما فيهشي تلطام

مقدود بلا قلام من شغل يديا

درته بين النهود نزلته مقدود

فـــــوق ســـــرار الزنـــــود حطيـــــت سمايـــــا
حتى في الساق زيد درت وشام جريد
ما قديتو باليد ذا حال الدنيـــا)

فكيف لابن قيطون أن يقول كل هذا الكلام دون خوف من أهل حيزية وهو يعيش معهم في قرية واحدة، وهم أهل رياسة ومنعة ؟

وابن قيطون هذا ، رجل حافظ للقرآن ، معروف بالورع والتقوى..

ثمّ إنّ قصيدة ابن قيطون نفسه تؤكد أن الذي يرثي حيزية هنا لا يرثيها كعشيقة، بل كزوجة،وهو ما عبّر عنه بـ (الحرمة) أو (أمّ حرام) ، في قوله:

ثلاثة و عشرين عام في عمر أم حرام
منها راح الغرام ما عاد شي يحيـا

وكيف لابن قيطون أن يدّعي أن حيزية حرمته (أم حرام) وهو لم يتزوجها ؟

ثم لو كانت حيزية مجرد عشيقة لسعيّد ، كيف يمكن لشيخ حافظ لكتاب الله ومعروف بالتقوى والورع

مثل ابن قيطون أن يدعو الله بأن يجمع سعيّد وعشيقته في الآخرة :

اغفـــر لي يا حنين انا و الاجمعين

راه ســـــعيد حـــــزين بيـــــه الطوايـــــا

ارحم مول الكلام و اغفر لام حزام

لاقيهم فالمنام يا عالي العليـــا

ثمّ إنّ بعضهم يجعل من سعيّد راعيا فقيرا من رعاة والد حيزية، وهذا الكلام لا يستقيم ، فسعيّد هو ابن عمّ حيزية، وهو من الفرسان ، وما في القصيدة من الاعتداد دليل على ذلك ، ومنه تغنيه بحصانه الذي يرثيه فيما بعد، وتسميته له بالأزرق ، والأزرق ليس اسما خاصا لحصان سعيّد ، بل هو اسم تدليل وفخر يطلق على كل ما هو عزيز على النفس من الخيل ، فلا يعقل أن يكون سعيّد راعيا وهو يتحدث عن جواده المدلل المقرّب إلى نفسه ، والذي فقده بعد شهر من وفاة حيزية، وكأنه نفق حزنا عليها..

ثم كيف يمكن لفتى في قبيلة لها أعرافها أن يجلس مع حبيبته على (سماط) واحد،والسماط هنا هو ما يفرش للطعام ..؟

في واد "يتل" نعيد حاطين سماط فريد
رايسة الغيد ودعتني يا خويـــــا

وكيف لسعيّد أن يضمّ حيزية إلى صدره وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ فأين والدها ووالدتها ، ومن حولها من الناس ،ومن حوله هو ؟

في ذا الليلة وفات عادت في الممات
كحـــل الرمقـــات ودعـــت دار الدنيـــــا
لضيتها لصدري ماتت في حجري
و دمعة بصري على خدودي مجريـــا

إن الذين يروّجون لرواية أنّ سعيّد قد اختطف ابنة عمه من زوجها ، وأن حيزية ماتت قتلا بسبب ذلك ، هم في الحقيقة أصحاب نية سيئة يريدون من خلالها ضرب القيم والأخلاق وإدانة القبيلة بتصويرها جانية،ظلامية، متحجرة ، انتقمت من امرأة تمارس (حريتها) وجرأتها وحقها ..

هؤلاء يريدون التأصيل لما يسمى حرية المرأة بمعناها الغربي ، باعتبار حيزية أقدم امرأة جزائرية تجرأت على القبيلة وعلى الدين وعلى الأخلاق وتحدت التخلف ، ودفعت حياتها ثمنا لذلك..

والحقيقة إذن ليست كذلك البتة .. إذ لم تكن حيزية سوى قصة أخرى،جميلة،عفيفة،منضبطة،حيية،شريفة ..

وبرأيي فإنّ هذا الحب قد تحوّل إلى أسطورة ، ليس لأنه كان حبا فقط ، فمثله كثير بين نساء ورجال الدنيا،لكن لأنّ حيزية الجميلة الآسرة قد توفيت وهي في الثالثة

والعشرين من عمرها ، وهو ما كان صدمة كبيرة لسعيّد وللحيّ كلّه.. ولو أنّ حيزية لم تمت بهذه الطريقة لما وصل إلينا شيء من هذه القصة .. وحسب فهمي وقراءتي لنص ابن قيطون فإن حيزية قد تألمت كثيرا في موتها ، لذلك عبّر الشاعر بأنها ماتت ميتة جهاد .. يعني مجاهدة واصطبار.. والناس عادة يرون (موت الحامل) جهادا ، والمرأة التي تموت بحملها شهيدة ، وهذا ما عبّر عنه ابن قيطون بقوله:

(ماتت موت الجهادْ
مصبوغة الأثمادْ
قصدوا بها بلادْ
خالد مسميا)

إنني أكتب عن حيزية وأنا أستند استنادا واعيا إلى نص الشاعر ابن قيطون ، وأنا أرى أنّ حيزية قد ظُلمت حية وميتة ، وإنه من الواجب على الباحثين وأهل المنطقة أن ينصفوا هذا (الناي المجروح) الذي بقي صوته المبحوح يئن في بوادي المنطقة إلى اليوم شاكيا الحيف والظلم

..والمطلوب من أهل منطقة سيدي خالد وأولاد جلال أن يتصالحوا مع حيزية ومع هذا الإرث الذي هو امتداد لتاريخ الحبّ العذري في قبائل العرب.. وبرأيي فإنّ الذين يقدحون في هذا الإرث العربي ، هم الذين لهم رؤى ضدّ كل ما هو عربيّ وإسلامي ،وهم يريدون بذلك إدانة القبيلة ، ومن خلالها الإسلام بالظلامية ومحاربة العواطف العفيفة وظلم المرأة وقمعها..وهم بذلك يريدون التأصيل الباطل لما يسمونه حرية المرأة ، وبأن حيزية كانت هي المرأة الجزائرية الأولى التي تجرأت على القبيلة وتمردت على الدين والأخلاق والأعراف..

ونحن نقول : إن حيزية منا ، ابنة أبيها وقومها ، ولم تكن سوى فتاة طيبة ، أحبت ، تزوجت، وماتت في زهرة شبابها ..

ولا يجب أن تخلد في التاريخ ومرويات الأدب سوى حيزية ، الهلالية العربية ، الحسيبة النسيبة الشريفة

العفيفة.. رمز ثقافة بني هلال ..وأسطورة الجمال والشعر والوفاء والفراق المبكّر..

obeikandl.com

معلّقة حيزية

مغرورة وغرورها لا يُعقلُ
ولها جمالٌ مستبدُّ يَقتلُ
وعيونها بدويةٌ، تبّا لها
وتصيرُ أحلى حينما تتكحّلُ
والرمش حالاتٌ وحسبَ ظروفهِ :
يرمي،يصيبُ،يشقّ ،يكوي،يشعلُ
والشّعرُ شلّالُ تدلّى خلفها
كالنهرِ فحميٌّ طويلٌ أليلُ
ليلا يحرّر ، كي يغطيَ جسمها
وإذا الصباح أتى ، يُشدّ ويُجدلُ
والصوت همسيٌّ،رقيقٌ، ناعمٌ
والثوب مطروز الجوانب، مِخملُ
أسنانها مفلوجةٌ من ربّها
سبحانه ، والشَّعر نهر أكحلُ

ميّاسة ، لماحة، رقراقةٌ

رجراجةٌ عند التثنّي ، جدولُ

بإشارة بالكفّ تبسط مُلكها

وكذاكَ كانت في الخلائق تفعلُ

مَن من عباد الله تعبر قربه

ويشم، يبصر، ثمّ لا يتزلزلُ ؟

(حيزيةٌ).. رقّ اسمها فترقرقتْ

في كل ثغر كالندى إذ يهطلُ

فكأنه في النطقِ قطعة سكّرٍ

أحلى الأسامي للنساءِ الأسهلُ

أثوابها كالياسمين أنيقةٌ

الريح فل، والرسومُ قرنفل

والأصبع الإبهام في حنائهِ

في السعر عن (ألماسةٍ) لا ينزلُ

قالوا يساوي ألف ألف أصيلةٍ

من عير يثربَ ، بالجمان تحمّلُ

قالوا يساوي في النساء قبيلةً
وبرغم ذلكَ ربّما لا تقبلُ
قالوا يساوي حِمل عشر قوافلٍ
ذهبا - تحكّ يداك- لا يتبدّلُ
قالوا يساوي شارعا بمدينة
تبنى بقرن كامل ، لا تكملُ
ورووا بإسناد صحيح أنّها
كانتْ إذا نظرت لعينكَ تذهلُ
تحمرُّ من خجل..وتصبحُ وردةً
عينِي على مَن بالتورّدِ يَخجلُ
ولها كأهل الكبرِ أنفٌ شامخٌ
إن أُغضِبتْ وتوتّرتْ لا ينزِلُ
برواية أخرى يقال بأنها
إن قورنتْ حُسنا بـ (ليلى)([31]) تفضلُ

[31] - ليلى حبيبة قيس.

obeikandl.com

يتحمّل الراوي الذنوب ، وذنبه
في جنبهُ، وهو الذي يتحمّلُ
والقدّ ممشوقٌ كمغزلِ صوفها
أحلى القدودِ الخيزرانُ، المغزلُ
والوجه منبسط يريّحُ ، مقمرٌ
والثغرُ فتّانُ المخارج بلبلُ
والحاجبان الماجنانِ لديهما
حركاتُ إغراءٍ تشدّ.. تُهبّلُ
وخلاخل بالرنّ تضبط لحنها
لتسير بالإيقاع تلك الأرجل
في المشيةُ الملكيةُ الإيقاع في
أنغام موسيقى الخطى تتنقلُ
فكأنّ أرجلها تلحّن مشيةً
وعلى مقام الزنجران([32]) تَبدّلُ

[32] - الزنجران أحد فروع مقام الحجاز عند أهل اللحن والمقامات.

oberkanal.com

مثل الحديقة ، لا أبالغ، مثلها
والفرق أنّ ورودها ، لا تذبلُ
والخدّ (...)..لا.. جاوزتُ حدّي هكذا
ونسيتُ نفسي ..آسف .. لا أكملُ
بصراحةٍ هي مستحيلٌ مدهشٌ
في صورةٍ بشريةٍ يتجوّلُ
وتقوم من بعد الجلوس كأنما
هي باقةٌ منثورة تتشكلُ
تنسيكَ قلبك ، في اليسار ، فربما
أمكستَ قلبكَ في اليمينِ تولولُ
هي نسمةٌ للصيف، تفرض نفسها
تجتاح قلبك ..دون إذن تدخلُ
وتسيل فيك كقطرة من زئبقٍ
وتروحَ تحفر مسلكا.. تتغلغلُ
أنثى ، إذا مرّ النسيم بخصرها

وحِمت([33])..وأنثى دون شيء تحبَلُ
بالحمد تغمض عينها ممتنةً
وتبوس ظاهر كفّها وتقبّلُ
وتقول: (شكرا يا جلالةَ مبدعي
شكرا لأنني في النساء الأجملُ)

-2

والحسن يمهل مَن يراهُ لكي يرى
لكنّه من بعدها لا يهملُ
والحسن ملحفةٌ مطرّزة لها
مسّاكُ عاجٍ ، مستدير، يُقفلُ
والحسن خاتم فضة في بنصرٍ
وخلاخل في ساقها تتخلخلُ
والحسن سبع أساور في زَندها
أغلى زنود المترفاتِ المثقلُ

[33] - وحمت الحبلى: اشتهتْ شيئا على حَبَلها.

obeikandl.com

والحسن محزمة تحاصر خصرها

فمها رهيب النّقش لا يُتخيّلُ

والحسن عقد أخضر في جيدها

مثل العقيق بصدرها يتدلّلُ

والحسن قرط قد تدلّى عابثا

مِن أذْنها، بخدودها يتغزّلُ

والحسن مبخرة بركن خبائها

يُكوى بها (الجاوي)ويُشوى(الصندلُ)

والحسن فستانٌ أنيقٌ أصفرٌ

فيه الجمالُ بكلّ عضوٍ يرفلُ

والحسنُ (خمسةُ)([34]) فضّةٍ في جبهةٍ

ليست لما (للعَيْن) قد يُستعملُ

[34] - الخمسة ، فضة تصاغ على شكل يد (خمسة أصابع) للزينة، أو لدفع العين عند بعضهم وهو من الجهل والشرك .. وهي هنا للزينة لا غير..

obeikandl.com

والحسن نظرتها بزورة عينها

ومزاجها الشرقيُّ إذ يتبدّلُ

والحسن حشمتها .. ذبول عيونها

وإزارها الحلو الطويل المسبلُ

والحسن كفّاها ، بكاء صلاتها

ودعاؤها الليليّ إذ تتوسّلُ

والحسن حنّاءٌ تخضّب كفّها

وأصابع بخواتم تتجمّلُ

والحسن جيد ساكر من عطرهِ

تلويه مثل غزالة ، وتميّلُ

والحسن حمحمةٌ ، صهيل أصيلةٍ

والغيد تحرن كالخيول وتصهلُ

والحسن رمش حارقٌ متوجّسٌ

رمش – عليه اللعنُ- نار،فلفلُ

-3

obeikandl.com

بلغت من الأعوام عشرينا لها

وثلاثة من بعد ذلك تكمُلُ

وأتى ملاك الموت يقبض روحها

والموتُ عند مجيئه لا يمهلُ

مخضوب أصبعه .. حَنون عيونه

الآنَ عن سرجِ الحياة سينزلُ

الأسمر القمحيُّ، واسعُ عينهِ

العندليبُ ، أبو الرموش، الأشهلُ

ريم الصحارى المشتكي من جرحه

الآنَ ينزلُ..صامتا ..يترجّلُ

المستبدّ العاطفيّ، لربه

سيعودُ في الكفن المعطّر يحجُلُ

والكون يبسط كفه من حزنه

فوق الشفاه ،يزمّها ،ويحوقلُ

سقطت بأهل البدو أطولُ نخلةٍ
وأعزّ نخلات الصحارى الأطولُ

-4

عزّوا بها ذاك الفتى ، مجنونَها
من كانَ في حالاتهِ يتزلزلُ
وترفّقوا فضلوعهِ مكسورة
وبصدره حمل يهدّ، ومرجلُ
فلقد تفتّت قلبهِ في إثرها
وأصابهِ ضرّ الفراق المُنحِلُ
يبكي ، ويعقد حاجبيهِ بغصةٍ
وكأنما المسكين لا يتحمّلُ
ويعضّ أضراس التوجّع ، يشتكي
ويعود يذكر ربهِ،ويحوقلُ

يرقى وينزل صدره من نارهِ
يرقى وينزل،ثم يرقى..ينزلُ
وتخيّروا الكلمات ، إنّ كلامكمْ
إما سيطفئ ناره أو يشعلُ
لا تشرخوه بلومكمْ .. وتفهّموا
أنّ الذي حصد السنابل منجلُ
شيئان لا ينساهما قلبُ الفتى :
(الجرحُ، والحبّ القديم الأوّلُ)
عزوا خيام الحيّ ، عزوا عيرها
للعير قلب عاطفيّ (يزعلُ)
ونوى التمور (البسكريةِ) ،فالنوى
في الحبّ كالعشاق لا يتبدّلُ
ومخدّة كانت رفيقة دمعها
كم فوقها قد مسّحت ما يهطلُ
والحزن سلسلة تجرجر نفسها
والضرّ يبدأ ، والفواجع تُكمِلُ

وبقبرها للآن صوتٌ خافتٌ

في الليل يسمعه الوحيد الأعزلُ

ويقال تُسمَع وهي ترثي نفسها

وتكلّم الكفنَ القديمَ وتسألُ

ويقال تبكي بالأنين ، وتشتكي

وتقول: (أقبلُ حكمَ ربّي،أقبلُ)

وتقول ما لي قوةٌ أو حيلةٌ

هذا قضاء الله ، ماذا أفعلُ ؟)

وتقول : (حسبيَ ربّ أحمدَ منصفي)

نعم الوكيلُ..وما سواهُ أوكّلُ

كتبت أبياتها الـ (82) بتوفيق الله في جلستين

الأولى مساء الأربعاء 28 أيار - مايو 2014-05-30

والثانية مساء الجمعة 30 أيار - مايو 2014 م

الفهرس

مقدّمة 05
الحلقة الأولى 09
الحلقة الثانية 17
الحلقة الثالثة 23
الحلقة الرابعة 29
الحلقة الخامسة 35
الحلقة السادسة 41
الحلقة السابعة 47
الحلقة الثامنة 53
الحلقة التاسعة 61
الحلقة العاشرة 69
الحلقة الحادية عشرة 77
الحلقة الثانية عشرة 85
الحلقة الثالثة عشرة 91

obeikandl.com

الحلقة الرابعة عشرة 97
الحلقة الخامسة عشرة 103
الحلقة السادسة عشرة 107
الحلقة السابعة عشرة..... 113
الحلقة الثامنة عشرة 119
الحلقة التاسعة عشرة 127
الحلقة العشرون 133
الحلقة الحادية والعشرون 141
الحلقة الثانية والعشرون 147
الحلقة الثالثة والعشرون..... 153
الحلقة الرابعة والعشرون 161
الحلقة الخامسة والعشرون 167
الحلقة السادسة والعشرون 173
الحلقة السابعة والعشرون 179
الحلقة الثامنة والعشرون..... 187
الحلقة التاسعة والعشرون 193
الحلقة الثلاثون 205

obeikandl.com

خاتمة 213
معلّقة حيزيّة 223
الفهرس 235

obeikandl.com